نقد الموضوعية وإشكالية التحيز

في فكر عبد الوهاب المسيري

أعداد

أميرة عبد السلام أحمد الشيباني

تحت إشراف

أ. د. رمضان بسطويسي محمد

أستاذ الفلسفة المعاصرة وعلم الجمال

كلية البنات – جامعة عين شمس

أ. د. فاطمة إسماعيل محمد

أستاذ مناهج البحث

كلية البنات – جامعة عين شمس

٢٠١٦م

ملخص

تتناول هذه الدراسة البحث في وجهة نظر المسيري ورؤيته التأسيسية للمناهج العربية انطلاقاً من نقد الموضوعية وفقاً للمفهوم الشائع لها، باعتبارها تعبيراً عن العقل السلبي الذي ساد العلوم الإنسانية العربية، وحتى التطبيقية في كثير من الأحيان.

وتقوم الباحثة بتحديد طبيعة العلاقة بين الموضوعية ونقدها عند المسيري، بمفهوم آخر، يعد أساسياً ومحورياً في فكره، وهو مفهوم التحيز، والذي اعتبر أنه عملية عقلية نابعة من صميم طبيعة التفكير والإدراك الإنساني، وهو ما يعكس رؤية تجديدية له، تنقض العديد من الثوابت والمسلمات التي استلزمها القول بإيجابية الموضوعية وسلبية التحيز.

وقد تضمنت هذه الدراسة البحث في طبيعة مفهوم الموضوعية لدى المسيري، وتسميته لما عُرف في سياق فكره بالموضوعية الفوتوغرافية المتلقية، وعرض الإشكاليات التي يمكن أن يؤدي إليها تحليل الظواهر وفق هذا النوع من الموضوعية، وبيان ما يقترحه بشأن ذلك من تجديد وإعادة بناء.

Summary

This study tackles the viewpoint of El Misery and his constitutional of the Arab approaches on the basis of criticizing the objectivism according to its common definition as an expression of the negative mind that prevailing the Arab humanities up to the applied sciences in many times.

The researcher determines the nature of relationship between objectivism and its criticism according to El Misery, in another concept, which is primary and central in his thought representing in the advocacy concept that was considered as a mental process stemming from the nature of thinking and human perception, the matter which reflects a new perspective of it that criticizes a lot of invariants and postulates which confirms the positiveness of objectivism and negativeness of advocacy.

This thesis included examining the nature of objectivism concept according to El Misery and his naming of what was known in his course of mind as the receiving photographic objectivism and presenting the problems that resulting from analyzing the phenomena depending on such type of objectivism and manifesting what he proposes concerning such matter in terms of renovation and rebuilding.

نقد الموضوعية وإشكالية التحيز

في فكر عبد الوهاب المسيري

المقدمة:

من المتعارف عليه أن الموضوعية هي سلوك منهجي متحرى، ومطلوب في كل مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية، وأي علم أو بحث أو دراسة تنتهج الموضوعية لابد أن تكون نتائجها سليمة ومضمونة، وحتى في حال التوصل لنتائج غير صحيحة أو غير مطابقة للواقع، فإنه على الأقل لا يمكن رمي البحث بتهمة اللاموضوعية أو وصمه بأنه غير موضوعي.

وهذا – بطبيعة الحال – لا يتأتى إلا بتخلي الإنسان عن عواطفه وانفعالاته، والتعامل مع المعلومات والوقائع بمنتهى الحيادية والتجرد حتى لا يقع في براثن التحيز، والذي – لو حدث – سيدفعه إلى إخفاء حقائق معينة أو إظهار وإبراز غيرها بغرض الوصول لنتائج وأهداف يمكن وصفها في النهاية بأنها ذاتية وغير موضوعية.

وبالتالي فالذاتية هي عكس الموضوعية، وهي الحالة التي تكون فيها الذات المنطلق والمعيار بغض النظر عن موافقة الحقيقة لها أم لا، وتمثل بذلك الموضوعية الوجه المضيء والإيجابي للباحث ولعمليته البحثية والذاتية هي الجانب السلبي والمظلم.

ولكن هل الأمر هو كذلك بالنسبة للمفكر عبد الوهاب المسيري؟

تحاول الباحثة من خلال هذه الورقة البحثية أن تجيب على هذا التساؤل من خلال رصد الإجابة على مجموعة من التساؤلات الأخرى التي تطرحها وهي:

- ما المقصود بنقد الموضوعية عند عبد الوهاب المسيري؟
- إذا كان المسيري ينتقد – فعلاً – الموضوعية، إذاً ما هو البديل الذي يطرحه؟
- ما علاقة الموضوعية بشكل عام – سواء مقبولة أو منتقدة – بالتحيز؟
- هل هناك علاقة بين إشكالية البحث ومجال اهتمام المسيري البحثي الأول (اليهودية والصهيونية) أم لا؟ وإذا كانت الإجابة بنعم فكيف كان ذلك؟

مناهج الدراسة:

إن طبيعة إشكالية البحث تحتم الجمع بين عدة مناهج، على أن هذه المناهج حتى وإن تنوعت إلا أنها تتكامل لتصب في مسار واحد وغاية واحدة، وقد استخدمت الباحثة المنهج التحليلي التركيبي والنقدي والمقارن.

الموضوعية المتلقية (المفهوم السلبي للموضوعية):

يتحدث المسيري عن الموضوعية (Objectivity) بالمفهوم المتداول أو على الأقل من ناحية سمعتها الإيجابية باعتبارها السمة المطلوبة من كل العمليات الفكرية المحايدة التي تطلب الحقيقة لذاتها ولا شيء غير ذلك، ولكنه في الوقت ذاته يبين أن هناك لبساً حصل على صعيد التطبيق وانحراف وخلل بنيوي أصبح يكتنف عمليات التفكير نفسها التي تدعي الموضوعية.

يقول المسيري: "أصبح من المألوف أن نسمع عبارات مثل (يجب أن نتحلى بالموضوعية) و(يجب أن نبتعد عن الذاتية). ولا شك أن الموضوعية أمر محمود، إذ كيف يمكن أن نصل إلى المعرفة وأن ندير مجتمعاتنا بل وحياتنا الخاصة دون أن نتحلى بصفة الموضوعية؟ ولكن عن أي نوع من الموضوعيات نتحدث؟"[١].

وليجيب المسري على هذا التساؤل الذي طرحه يبدأ بوضع مجموعة من التعريفات لمفهوم الموضوعية باعتبار ما هو شائع ومتعارف عليه حول طبيعة هذا المفهوم، فيقول: "والموضوعية هي إدراك الأشياء على ما هي عليه دون أن تشوهها نظرة ضيقة ذاتية أو أهواء أو ميول أو مصالح أو تحيزات أو حب أو كره، ولذا، فإن وصف شخص بأنه (تفكيره موضوعي) فإن هذا يعني أنه اعتاد أن يجعل أحكامه تستند إلى النظر إلى الحقائق على أساس العقل وبعد معرفة كل الملابسات والظروف والمكونات"[٢].

ويقول أيضاً: "تعبر الموضوعية عن إدراك الأشياء على ما هي عليه دون أن يشوبها أهواء أو مصالح أو تحيزات، أي تستند الأحكام إلى النظر إلى الحقائق على أساس العقل"[٣]،

---

(١) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ط٢، (القاهرة، مكتبة الشروق الدولية)، ٢٠٠٨م، ص٣٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥٧.

(٣) المسيري، عبد الوهاب: الموضوعية والذاتية، موقع ثقافة عامة، ٢٠٠٢.
www.khaym.com/amoudaress/takafah/maoudoia.htm
اليوم ٢١ يناير ٢٠١٦، الساعة ٢١,٠٣.

وفي نص آخر "والموضوعية هي أيضاً الإيمان بأن لموضوعات المعرفة وجوداً مادياً خارجياً في الواقع، وأن الحقائق يجب أن تظل مستقلة عن قائليها ومدركيها، وأن ثمة حقائق عامة يمكن التأكد من صدقها أو كذبها، وأن الذهن يستطيع أن يصل إلى إدراك الحقيقة الواقعية القائمة بذاتها، مستقلة عن النفس المدركة، إدراكاً كاملاً، وأنه بوسعه أن يحيط بها بشكل شامل، هذا إن واجه الواقع بدون فرضيات فلسفية أو أهواء مسبقة أو تحيزات أيديولوجية"[٤].

وبرغم إيجابية مضمون التعريفات الآنفة لمفهوم الموضوعية إلا أن المسيري يرى أن الإشكالية تكمن في انحراف الموضوعية عن مفهومها وطبيعتها المعلنة إلى ما يسميه بالموضوعية المتلقية "السلبية – الفوتوغرافية – الرصدية – المعلوماتية المادية"[٥].

وهو يرى أن بذور المشكلة لهذا النوع من الموضوعية يظهر من خلال موقفها إزاء ثلاث قضايا هي: العقل والواقع والإدراك.

بالنسبة للعقل فإن هذه الموضوعية تعمل على تكريس فكرة العقل السلبي الذي لا دور له سوى تخزين المعلومات التي يتم تجميعها والتقاطها بشكل فوتوغرافي، مما حدى به إلى تسميتها بالموضوعية الفوتوغرافية وهي – بحسب ما يرى – "تذهب إلى أن المعرفة عملية تراكمية تتكون من التقاط أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع (المادي) كما هو تقريباً، بصورة فوتوغرافية (أو شبه فوتوغرافية)، وإدراجها في البحث أو الدراسة (دون ربط بين المعلومات ودون محاولة تجريد أنماط منها)" [٦]، فهو يسجل ويرصد بحياد شديد دون أن يغير أو يعدل ما يصل إليه من معطيات حسية وحقائق صلبة[٧].

هذا العقل (السلبي) يرى العالم في إطار التشابه والتجانس والكم – فقط – لذلك فهو عاجز تماماً عن تجريد الحقيقة من التفاصيل المتناثرة، ولهذا فهو يرصد ويجمع هذه التفاصيل دون أن يربط بينها، وإنما يراكمها معلومة إثر معلومة[٨].

---

(٤) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٥٧.

(٥) مسميات يطلقها المسيري على الموضوعية المتلقية (المصدر السابق، ص٣٥٨).

(٦) المسيري، عبد الوهاب: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر "سيرة غير ذاتية، غير موضوعية"، ط١، (القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة)، ٢٠٠٠م، ص٢٤٢.

(٧) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٥٨.

(٨) المصدر السابق، ص٣٥٩.

والواقع بناء على ذلك بسيط جداً، يحكمه قانون واحد هو القانون الطبيعي، هذا القانون يسري على الظواهر الطبيعية وعلى الظواهر الإنسانية، فتعامل الظاهرة الإنسانية كالظاهرة الطبيعية وبذلك تزول أي فروق بين الطبيعة والإنسان، إذ أن الموضوعية تصدر – منذ البداية – عن الإيمان بوحدة العلوم سواء الطبيعية أو العلوم الإنسانية، والإنسان من وجهة النظر - هذه – لا يختلف عن الموضوع الطبيعي[٩].

ولعل السبب وراء ذلك يكمن في أن كل الحقائق ليست سوى حسية أو عقلية – فالعقل أساساً هو جزء من الطبيعة – وهي قابلة لأن تعرف من جميع جوانبها، والموجود هو ما نحسه ونعقله أما عدا ذلك فهي ليست سوى أوهام.

أما بالنسبة لعملية الإدراك، فالموضوعية تستند إلى أن ثمة علاقة تجمع بين أجزاء الأشياء المدركة، وأن الناس جميعهم بوسعهم أن يتوصلوا إلى إدراك هذه العلاقات وبنفس الطريقة لو أتيح لهم نفس الموقف الصحيح لإدراكها، وهو يرى أنه في حال تحقق ذلك، فإنه سيتم إلغاء فعالية العقل وإبداعاته، وسيلغي ذلك الذاكرة التاريخية وأعباء الذات المدركة الأخلاقية وتحيزاتها وأوهامها أو آمالها وأحلامها والتي من المفترض أنها تؤثر في عملية الإدراك[١٠]. وهو ما يعتبره المسيري أمراً مرفوضاً، إذ "أنه من المستحيل على العقل البشري أن يتعامل بحياد تام مع معطيات الواقع حتى لو حرص صاحبه على ذلك"[١١].

ومن الجدير بالذكر أن الموضوعية بشكل مطلق تحمل دلالة ضبابية وغير واضحة من حيث إمكان تطبيقها في مجال العلوم الإنسانية على وجه الخصوص، إذ من غير الممكن أن يتم دراسة ظاهرة أو موضوع إنساني بعيداً عن السياق الذي ظهر ونشأ فيه، سواء كان سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو غيره مما له علاقة بالتفاعل الإنساني بشكل شخصي أو عام، ولكن هل ذلك سيجعل الأمور تخرج من إطار الموضوعية (Objectivity) إلى إطار الذاتية (Subjectivity)؟

---

(٩) المصدر السابق، ص٣٥٩.

(١٠) المصدر السابق، ص٣٥٩.

(١١) المكي، هشام: من العقل السلبي إلى العقل المبدع "قراءة في مساهمات عبد الوهاب المسيري المنهجية في البحث الاجتماعي"، مقال على موقع مركز نماء للبحوث والدراسات، ٢٠١٢م.
Nama-center.com/Activitie Datials. Aspx?id=174
يوم ٤ يونيو ٢٠١٣، الساعة ٢٢,٣٦.

إن عملية المعرفة بحد ذاتها تجعل من الذات نقطة الانطلاق الأساسية نحو العلم بشكل عام سواء موضوعي أو غير ذلك، فالذات العارفة طرف أساسي في الموضوع، والمرور الضروري للمعرفة عبر الذات يترك حتماً آثار هذه الذات وبصماتها في صوغ شكل تلك المعرفة ومضمونها، وبالتالي فالمعرفة الإنسانية محكومة بملكات الإنسان الحسية والنفسية والعقلية وهو ما يمكن تسميته بالبعد الوجودي (الأنطولوجي) (Ontology) للذات العارفة، وفي مقابله البعد المعرفي (الابستمولوجي) (Epistemology) وهو ما تحدده المعارف التي اكتسبها الإنسان عبر تفاعله مع بيئته، وما نجم عنه من تحصيل معرفي تاريخي، وميول واهتمامات ووجهات نظر، بالإضافة إلى بعد ثالث هو منظور معرفي – أخلاقي يتحدد بالعقل المعرفي الذي نشتغل فيه، وبالنظريات التي نعمل في إطارها، وبالمبادئ التي نستند إليها أو نستخدمها، وبتقييماتنا الأخلاقية وغير الأخلاقية لموضوع المعرفة وحيثياته، هذه الأبعاد الثلاثة تتداخل في النهاية لتشكل المنظور الذي يحدد ليس فقط ذاتية المعرفة بل أيضاً موضوعيتها[١٢].

ويقترح المسيري في إطار نقده تصحيح المفاهيم من خلال تغيير بعض المسميات التي يرى أنها تحمل دلالات مختلفة عن دلالاتها الحقيقية، فعلى سبيل المثال ما اصطلح على تسميته (موضوعياً) يجب أن يصبح (موضوعاتياً)، وهو يرى أنها تسمية تعبر بشكل أدق عن الحالة التي يكتفي فيها الدارس برصد التفاصيل أو الموضوعات والمعلومات حتى لو افتقرت لوجود صلات فيما بينها أو حتى التفافها حول فكرة مركزية تضمن لها أي نوع من الصلات، فلا يميز فيها بين ما هو تعبير عن نمط كلي أو مجرد وقائع عرضية تتراوح مكانتها بين ما يستحق الإبقاء أو الاستبعاد[١٣].

وهو في نفس السياق يميز بين (الواقعية) و(الوقائعية)، "فالواقعية هي أن تصل إلى جوهر الواقع (الماضي والحاضر والمستقبل) وانطلاقاً من هذا يمكن الربط بين الوقائع المختلفة وترتيبها وتجريد معنى عام منها يتجاوز كل معلومة على حدى، أما الوقائعية فهي مرتبطة بالحاضر وحسب، وهي عملية رصد مباشرة للأمر القائم، وتهمل ما هو كائن"[١٤].

---

(١٢) درويش، حسام الدين: الفكر أو الموقف السياسي بين الحيادية والموضوعية وبين العقلانية والمعقولية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٨ أكتوبر ٢٠١٣.
www.dohainstitute.org/release/f4201954-f7ee-47-86-9c3e-d909e752 afc5
يوم ١٨ يناير ٢٠١٥، الساعة ١٣,٤٣.

(١٣) المسيري، عبد الوهاب: رحلتي الفكرية، مصدر سابق، ص٢٤٣.

(١٤) المصدر السابق، ص٢٤٣.

وهو يرى أن هذه التمييزات تقع ضمن إطار تمييز أعم وأشمل، هو التمييز بين الحقائق والحقيقة، والحقائق هي "معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط"[١٥]، وليس للعقل دور فعال إزاءها غير عملية تجميعها، "أما الحقيقة فهي نتاج جهد إنساني عقلي، حيث يقوم العقل بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج منها"[١٦]، ومن المعروف أن عمليتي التجريد والربط تقفان على طرفي النقيض من عمليتي الحشد والتراكم كما في الموضوعية الفوتوغرافية المتلقية.

والسؤال الذي يجب أن يطرح الآن هو: ما هو السبيل الذي يراه المسيري للخروج من فخ الرؤية الموضوعية المتلقية؟ والتي يرى أنها "في واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية والقدرة على الاجتهاد"[١٧].

لحل هذه الإشكالية يرى المسيري أنه لابد من تبني رؤية جديدة للعقل الإنساني باعتباره كياناً توليدياً وليس مجرد آلة تصوير فوتوغرافي تلتقط الحقائق أو الموضوعات وتعكسها دونما أدنى تدخل، بل باعتباره أداة رئيسية في خلق الحقيقة وتجريدها من خلال سيطرته على المعلومات التي يقوم بتلقيها وتسجيلها والتوصل للحقيقة من خلالها.

هذا العقل وفق هذه الآلية من العمل هي ما يسميه المسيري بالموضوعية الاجتهادية التفسيرية.

الموضوعية الاجتهادية التفسيرية:

يعرض المسيري حله لما يعتري فكرة الموضوعية من نقص وأشكال يتبدى في صورة ما أسماه بالموضوعية المتلقية وهي الحالة التي يكون فيها العقل مجرد "مرآة تعكس الواقع بشكل بسيط مباشر"[١٨] بأن هناك بديلاً عن هذه الموضوعية هو ما يسميه (الموضوعية الاجتهادية التفسيرية).

هذا النوع من الموضوعية – وهي موضوعية بالمفهوم الإيجابي – يرى المسيري أنها تنطلق من أن العقل الإنساني هو أداة واعية له مقدرة توليدية تتعامل مع الواقع المادي ليس كمثير مادي تعقبه استجابة بل كرد فعل لهذا الواقع من خلال إدراك مركب توجهه إسقاطات هذا

---

(١٥) المصدر السابق، ص٢٤٣.

(١٦) المصدر السابق، ص٢٤٣. وأيضاً: المسيري، عبد الوهاب: حوارات الثقافة والمنهج، تحرير: سوزان حرفي، ط٣، (دمشق،دار الفكر)، ٢٠١٢م، ص٢٣٤-٢٣٥.

(١٧) المسيري، عبد الوهاب: اليهود في عقل هؤلاء، د.ط، (القاهرة، دار المعارف)، د.ت، ص٦٩.

(١٨) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٧٠.

العقل[١٩]، "فهو مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزنة في الوعي واللاوعي"[٢٠].

أي أن عقل الإنسان ليس مرآة تعكس ما يقابلها، أو ورقة بيضاء تسجل ما يخط عليها، بل هو مزيج من المقولات والصور التي تشكل خريطة يحملها الإنسان ويتصور أن عناصرها وعلاقات هذه العناصر ببعضها البعض تشكل عناصر الواقع، والواقع لا يمكن إدراكه إلا من خلال هذه الخريطة[٢١].

هذه الخريطة العقلية يسميها المسيري (الخريطة الإدراكية)، وهي "التي تحدد ما يمكن أن يراه الإنسان في هذا الواقع الخام، فهي تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها مهمة ومركزية"[٢٢]، وتتسم هذه الخريطة بأنها في معظم الأحيان غير واعية، فالإنسان يحملها بعقله وهو يرى أنها الأكثر منطقية وطبيعية[٢٣].

ويستعين الباحث (علي حجاج) بحكاية تعود للقرن السادس عشر يرويها المؤرخ (مارشال هودجسون) (Marshall Hodgson)[٢٤]، ليوضح بها كيفية عمل الخريطة الإدراكية وتأثيرها على الواقع وإدراكه وطريقة النظر إليه، وتتلخص هذه الحكاية حول المبشر الإيطالي

---

(١٩) المصدر السابق، ص٣٧٠.

(٢٠) المسيري، عبد الوهاب: الخريطة الإدراكية، مقال على موقع الجزيرة نت.
www.algazeera.net/krowledgegata/opining/2004/10/3
يوم ١٩ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٤,٢٢.
وأيضاً: المسيري، عبد الوهاب: فلسطين المحتلة والعقل الأمريكي، مقال على موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري نقلاً عن الجزيرة نت.
www.elmessiri.com/articles-view.php?id=48
يوم ١٩ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٤,٢٢

(٢١) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة العربية، مصدر سابق، ، ص٢٧١.

(٢٢) المصدر السابق، ص٢٧١.

(٢٣) المصدر السابق، ص٢٧٢.

(٢٤) مستشرق أمريكي ومؤرخ في جامعة شيكاغو، ولد في ١١ أبريل ١٩٢٢م، وتوفي في ١٠ يونيو ١٩٦٨م.
https://en.wikipedia.org/wiki/marshall-hodgson
يوم ٢ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٦,٢٢

(ماتيوريتشي) (Matteo Ricci)[٢٥] الذي قام في إحدى رحلاته للصين بعرض رسم لخريطة العالم، لإظهار الاكتشافات الأوروبية الجديدة في أمريكا للصينيين، وما كان يتوقعه هو انبهارهم بتلك الاكتشافات ولكن ما حصل أنهم أبدوا امتعاضهم وشعورهم بالإهانة عندما رأوا تقسيم سطح الأرض وموقع الصين التي تبدو على حافة اليمين، وموضع الحرج والاختلاف هنا هو أن هذه الخريطة الجغرافية تتعارض مع الخريطة الإدراكية الصينية، وتدحض تصورهم بأن الصين هي مركز الكون، وبالتالي مركز الخريطة، ولتجنب الحرج فقد قام ريتشي برسم الخريطة مرة أخرى ومن زاوية أخرى لتبدو فيها الصين في مركز العالم[٢٦].

وعلى الرغم من أنه من الواضح مضمون الحكاية الفكاهي إلا أن ما تضمنته يلخص الفكرة التي يقصدها المسيري من أن ما تحتويه أذهاننا من خلفية تمثل خلاصة التجارب والمعتقدات والإرث الثقافي يلعب دوراً مهماً في إدراكنا للعالم من حولنا.

ويطلق المسيري على هذا المفهوم إلى جانب تسميته بالخريطة الإدراكية، اسم أو مصطلح (النموذج الإدراكي).

وهو يضرب بعض الأمثلة التوضيحية لهذه الآلية الإدراكية، منها – على سبيل المثال – تعامل بعض الحضارات مع فكرة الألوان، "فهناك حضارات لا يوجد في نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى لونين (أبيض وأسود) وحضارات أخرى لا يوجد فيها سوى أربعة ألوان، وهناك الحضارات الأكثر تركيباً التي ضم نموذجها ألوان الطيف الأساسية وبعض التنويعات الأخرى عليها. ويقال إن أعضاء الحضارات التي لا يضم نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى أربعة ألوان وحسب لا يرى أبناؤها سوى أربعة ألوان"[٢٧].

ويرى المسيري أن تركيبة الإنسان وتشكله الداخلي الذي تخلقه الخريطة الإدراكية الكامنة ينعكس من خلال مظهرين في العملية الإدراكية باعتباره (مُدرَكاً)، و(مُدرِكاً).

---

(٢٥) راهب ومبشر إيطالي، ولد سنة ١٥٥٢م في إيطاليا، وتوفي ١٦١٠م في الصين، وهو مؤسس البعثات الكاثوليكية للصين.

www.newadvent.org/cathen/13034a.htm

يوم ٢ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٨,٥٣

(26) Ali, Haggag:: Mapping the Secular Mind. Modernity's Quest for a Godless Utopia: (London, Washington, International Institute of Islamic Thought) 2013, p.1.

(٢٧) المسيري، عبد الوهاب: أسرار العقل الصهيوني، ط١ (القاهرة، دار الحسام)، ١٩٩٦، ص٤-٥.

ففي الحالة الأولى وهي حالة (المُدْرَك) فإننا لكي نقوم بدراسة أي ظاهرة إنسانية لا نكتفي باستعادة الفاعل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الطبيعي فقط، بل لابد من الغوص في أعماق الفاعل الإنساني[٢٨]، وما يوجهه من دوافع الإنسان والعالم الداخلي له والمعاني التي يسقطها والتي لا شك تتصل اتصالاً وثيقاً بما يتبناه من مبادئ أخلاقية ومسلمات عقائدية وبنى فكرية، وهو ما يشكل منظومة متكاملة ومتنوعة من الأسباب والأهداف والرؤى التي من خلال التوصل إليها واستيعابها يمكن الإحاطة بأبعاد الظاهرة الإنسانية والكشف عن حقائقها وخباياها.

أما باعتباره (مُدرِكاً) فإن الأمر لا يكاد يختلف عن السابق، فالخريطة الإدراكية التي يحملها الإنسان في عقله ووجدانه هي التي تحدد ما يمكن أن يراه في الواقع، فهي تستبعد بعض التفاصيل وتهمشها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها هامة ومركزية[٢٩].

وللتدليل على هذه الفكرة يضرب المسيري المثال التالي: "حاول أن تنظر إلى صورة زيتية ملونة بصحبة ناقد محنك وستجد أنه سيكتشف من التنويعات اللونية ما لم يطرأ لك على بال لأن نموذجك المعرفي وخريطتك الإدراكية قد حددا إدراكك، وهي خريطة قام الناقد بإضافة مقولات جديدة لها فأدركت من التنويعات اللونية ما لم تدرك من قبل ونحن هنا لا نتحدث عن (عمى الألوان) وهو عيب فسيولوجي قد يصاب به الإنسان، وإنما نتحدث عن حدود إدراكية ناجمة عن حدود النموذج المعرفي ذاته والخريطة الإدراكية ذاتها، فالإدراك يتم من خلال الأداة، أي النموذج، ويتحدد الإدراك بمقدار مدى ضيق النموذج أو اتساعه"[٣٠][٣١].

إذاً فالخريطة الإدراكية – بحسب ما يرى المسيري – هي التي تحدد لنا الزوايا التي ننظر فيها إلى الأمور وتهيئ لنا إمكانية ووسيلة الحكم، بما يتناسب مع المنظومة القيمية المستبطنة من قبل غالبية الناس الذين يحملون نفس الخريطة الإدراكية.

وبرغم تمايز الخريطة الإدراكية بين فرد وآخر – بحسب الخبرات والتجارب الشخصية التي عاشها وخاضها الإنسان – إلا أن هناك خطوطاً عريضة مشتركة تجمع مجموع الأفراد أو

---

(٢٨) المصدر السابق، ص٥.

(٢٩) المصدر السابق، ص٤.

(٣٠) المسيري، عبد الوهاب: الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح، د.ط، (بيروت، دار الحمراء)، ٢٠٠٤م، ص٩-١٠.

(٣١) حول إمكانية استغلال مفهوم الخريطة الإدراكية واستخدامها في كسب الرأي العام العالمي في مسألة الصراع العربي الإسرائيلي يمكن مراجعة مقال المسيري (فلسطين المحتلة والعقل الأمريكي)، سابق.

الناس الذين تجمعهم ظروف تاريخية واجتماعية وثقافية بل وحتى اقتصادية واحدة، ما يجعل من هذه الخريطة عاملاً مهماً في تجنب الوقوع في فخ التبعية الإدراكية الذي يحذر منه المسيري.

الإدراك بين التبعية الإدراكية وحتمية التحيز:

يرى المسيري أن هناك إشكالية كبيرة يؤدي إليها تحليل الظواهر بأسلوب الموضوعية المادية المتلقية وهي ما أسماه بالتبعية الإدراكية، وهي أن نقوم بتجاهل خصوصية ظواهرنا التي نخضعها للدراسة ونستخدم ما هو رائج من مقولات إدراكية تحليلية جاهزة، وهو ما يؤدي في النهاية إلى ما أسماه (إمبريالية المقولات)[٣٢].

وإمبريالية المقولات هي "أن تقوم إحدى القوى بتحديد النماذج المعرفية والمقولات التحليلية الأساسية بطريقة تعكس إدراكها للواقع وتخدم مصالحها وتستبعد إدراك الآخرين وتهمل مصالحهم"[٣٣]، ويتم استبطان هذه المقولات سواء بوعي أو من دون وعي، ويمكن تلخيص الأمر بأنه غزو للخريطة الإدراكية واستيلاء عليها[٣٤].

وفي حالة اللاوعي تحصل عملية اختراق خفي، حيث يتبنى المرء مقولات دون أن يدري انتمائها لحقل فلسفي وحضاري معين، وربما وجدنا الكثير من الناس يلعنون ليل نهار إسرائيل والغرب، ولكن تجدهم من ناحية أخرى يتبنون أنماطهم في التفكير، ويعتمدون مناهجهم في المقاربات المختلفة، ومعاييرهم في التصنيف والرصد والتحليل[٣٥].

هذا الغزو أو الاستيلاء الذي يتم سواء بشكل واع أو غير واع – يتنازل فيه طرف – هو في الغالب الطرف المغلوب أو الأقل سلطة وقوة – عن خريطته الإدراكية أو نموذجه الإدراكي، ليتبنى ويعتمد خريطة إدراكية أخرى هي خريطة الطرف الأقوى أو المنتصر، والتي لا تعبر سوى عن رؤيته ومصالحه.

---

(٣٢) هي لفظ استخدمه المسيري، منوهاً إلى أنه قد استعاره من أحد علماء الاجتماع الغربيين (المسيري، عبد الوهاب: دفاع عن الإنسان، دراسة نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، ط١، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٣م، ص٢٧٨).

(٣٣) المسيري، عبد الوهاب: أسرار العقل الصهيوني، مصدر سابق، ص٨.

(٣٤) المسيري، عبد الوهاب: حوارات "الثقافة والمنهج"، مصدر سابق، ص٢٦٨.

(٣٥) الشقوري، جواد: في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي – الإسلامي، مجلة أوراق فلسفية، العدد ٢٠، سنة ٢٠٠٩، القاهرة، ص١٢٦.

ويرى المسيري أن هذا ما حدث للخطاب العربي التحليلي، فخرائطنا مشبعة بالهزيمة، والبديل المطروح والجاهز هو خريطة الغرب المنتصر صاحب النفوذ والسلطة، وبالتالي فعملية الإدراك أصبحت تتم وفق ما هو سائد ورائج من مقولات تحليلية غربية.

يقول المسيري: "يبدو أننا نخضع تماماً لإمبريالية المقولات الغربية وأننا سقطنا بشكل شبه كامل في التبعية الإدراكية. فقد تلقينا المعلومات من الغرب ومعها نماذجه المعرفية ومقولاته التحليلية الكامنة، وتتضح تبعيتنا الإدراكية حينما نتحدث عن الحضارة الغربية وحينما نتحاور بشأنها ونتخذ مواقف معها أو ضدها، إذ أننا عادة ما نفعل ذلك بناء على المعطيات التي تسمح لنا هذه الحضارة بالاطلاع عليها داخل أطر جاهزة ونماذج معرفية مسبقة أعدها مفكرون غربيون، فنطرح نفس الأسئلة التي يطرحونها هم عن حضارتهم ومن منظورهم، أي أننا ندرك الحضارة الغربية لا بشكل مباشر وإنما كما يشاء لنا أصحابها إدراكها. بل إننا بدأنا ننظر إلى أنفسنا من خلال المقولات التحليلية لعالم الغرب ونماذجه الإدراكية، ولذا فقد بدأ الإنسان العربي يرى نفسه متخلفاً مهما بذل من جهد ومهما أنتج من روائع، وبدأ يحكم على نفسه بالهزيمة في المعركة قبل دخولها. والواقع أن التبعية الإدراكية ليست تبعية اقتصادية وحسب (وإن كانت تترجم نفسها إلى ذلك)، وإنما هي بالأساس تبعية عميقة كامنة تتغلغل في أسلوب الحياة (بما في ذلك النشاط الاقتصادي) وفي رؤية الذات ورؤية الآخر"[٣٦].

هذه التبعية الإدراكية تنعكس في طريقة طرحنا للأسئلة بخصوص الكثير من الظواهر، فنحن لا نسأل هذه الأسئلة وفق رؤيتنا ووجهة نظرنا، بل دائماً ما ننساق وراء الطريقة الغربية في طرح الأسئلة والتي سلكناها واتبعناها بمنتهى الدقة والموضوعية – بحسب المسميات الرائجة – وهي لا تعبر سوى عن رؤيته ومصالحه[٣٧].

ولكن السؤال الذي يطرح هنا هو: ما مدى ضرورة أن يكون هناك التزام بالخرائط والمقولات الإدراكية الخاصة أو حتى أن يكون هناك تبعية إدراكية لمقولات وخرائط الغير؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من الخوض في موضوع آخر يطرحه المسيري وهو (التحيز).

---

(٣٦) المسيري، عبد الوهاب: دفاع عن الإنسان، مصدر سابق، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٣٧) المصدر السابق، ص٢٨٠.

إشكالية التحيز في المنهج والمصطلح:

في البداية لابد من القول إن إشكالية التحيز قد تبلورت أبعادها لدى المسيري وتحددت خطوطها العريضة عبر مشوار حياته على صعيديها العلمي والشخصي، فما اكتسبه من معلومات علمية وبحثية يعادل في أهميته وتأثيره ما اكتسبه من خبرات وتجارب خلال حياته بمختلف أدوارها ونماذجها، وهو ما يتضح من خلال تناوله لهذه الإشكالية في سيرته الذاتية[٣٨].

يتحدث المسيري عن بدايات إدراكه لهذه الإشكالية ويرى أنها بدأت بُعيد انتقاله من مدينته الريفية دمنهور إلى المدينة الحديثة الإسكندرية، وهو يروي ذلك كالتالي: "بدأت مسألة التحيز المعرفي تصبح إشكالية أساسية تطرح نفسها عليّ بعد انتقالي من دمنهور إلى الإسكندرية، إذ لاحظت التباين في العادات والتقاليد (والنماذج الإدراكية) بين المدينة/ القرية المصرية من ناحية، ومن ناحية أخرى المدينة الكوزموبوليتانية المصرية اسماً، الغربية فعلاً"[٣٩].

النص السابق يظهر المرة الأولى التي عايش فيها المسيري تجربة الاختلاف في المخزون الإدراكي بين مجتمع وآخر وهي تجربة اختبرها بشكل أكثر عمقاً وقوة[٤٠]، حينما ذهب للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية وإقامته بها فترة طويلة امتدت إلى أحد عشر عاماً، فهو في هذه المرة عايش مجتمعاً مختلفاً كلياً عن مجتمعه، وعاش تجربة حياتية لا علاقة لها بكل ما مضى من عمره، وقد واجهته الكثير من الأسئلة التي نبهته إلى أن إدراكنا للواقع ليس هو الواقع في حد ذاته، وأنه لا يجب الخلط بينهما، وأدرك أن هناك اختلافاً كبيراً بين إدراكه النابع من مخزونه الإدراكي، وإدراك الآخر لنفس الظاهرة، وبدأ يخوض معركة داخلية لحسم موقفه الإدراكي، هل ينظر إلى الظواهر ويفسرها وفق طريقته، أو وفق طريقة الآخر الأمريكي؟ وفي حالة أن يكون وفق طريقته ما هو سبب اختيارها واعتمادها دون طريقة الآخر؟ أي ما السبب وراء ذلك؟ وما الذي يحدث حينما يختار طريقة الآخر؟ وما الذي يجري بالفعل؟

هذه التساؤلات التي عاشها كتجربة حياتية قامت بالكشف عن حقيقة كان يجهلها وهي أننا نحمل في داخلنا مكونات موروثة ومكتسبة تتأسس وتتم بناء عليها عملية الإدراك، فالإدراك

---

(٣٨) تناول المسيري إشكالية التحيز في سيرته الذاتية ضمن الجزء الثاني من الفصل الثاني، وذلك تحت ثلاث عناوين رئيسية هي: إشكالية التحيز: تجاربي الخاصة – إشكالية التحيز: التعمير الحضاري – إشكالية التحيز: المؤتمر والكتاب.

(٣٩) المسيري، عبد الوهاب: رحلتي الفكرية، مصدر سابق، ص٣٣٤.

(٤٠) يصف المسيري هذه التجربة بالنص التالي: "لكن التجربة الحاسمة كانت انتقالي إلى الولايات المتحدة". (المسيري، عبد الوهاب: رحلتي الفكرية، مصدر سابق، ص٣٣٥).

يتحدد مجاله وتوضع خطوطه العريضة من خلالها، هذا ما أسماه فيما بعد بالخريطة الإدراكية، والتي بناء عليها يصبح سلوك الإدراك معروفاً ومحدداً، وبالتالي يصبح هناك نوع من الالتزام بالخطوط العريضة له والتي لا يمكن سلوك غيرها، لدرجة أن يصبح الأمر في حقيقته تحيزاً لها، وهو كتحيز أصحاب الحضارات "التي لا يحتوي النموذج الإدراكي المهيمن عليها إلا على لونين أو ثلاثة، ولذا لا يرى أهلها إلا هذه الألوان"[٤١].

وهو يرى أنه من الطبيعي أن ينحاز الإنسان إلى خريطته الإدراكية ويسير وفقاً لها في عملية إدراكه، فهو يرى "أن التحيز من صميم المعطى الإنساني ومرتبط بإنسانية الإنسان، أي بوجوده ككائن غير طبيعي لا يُرد إلى قوانين الطبيعة العامة ولا ينصاع لها. فكل ما هو إنساني يحوي قدراً من التفرد والذاتية ومن ثم التحيز. وإذا عرَّفنا الحضارة بأنها كل ما صنعته يد الإنسان (في مقابل ما يوجد جاهزاً في الطبيعة)، فإن الثقافي بالضرورة متحيز. بل إن ما يوجد في الطبيعة ذاتها يجسد تحيزاً، إذ أن الإنسان هو الذي يجد الشيء الطبيعي، وهو الذي يدركه حتى لو عثر عليه بالصدفة. وحينما يجد الإنسان الشيء الطبيعي فإنه يسميه، أي يدخله شبكة الإدراك الإنساني، وينقله من عالم الطبيعة والأشياء إلى عالم الإنسان، فيوظفه في الخير أو الشر حسبما تمليه الاعتبارات الأخلاقية التي يؤمن بها"[٤٢].

وبالتالي فالتحيز هو خاصية إنسانية قديمة قدم الإنسان، وهي خاصية لصيقة بالطبيعة البشرية، ومرتبطة بها ارتباطاً وجودياً ماهوياً[٤٣]، وحتمية التحيز في نظر المسيري ليست عيباً، ولا نقيصة، وهو يرى أن حتى النظريات التي تنكر وجود التحيز هي ذاتها متحيزة لرؤية محددة، فهي تلخص الواقع (الطبيعة والإنسان) في كونه كياناً مادياً بسيطاً تسري عليه القوانين العامة التي تسري على كل المخلوقات وبالتالي فإن عقل الإنسان هو جزء لا يتجزأ من هذه المنظومة، ليس له أي استقلال عن هذه القوانين، وأن الإيمان بالتحيز، هو في حقيقته رفض لهذه الأفكار، بل هو تأكيد بأن عقل الإنسان مبدع وفعال، ودوافعه مركبة، فهو لا ينظر للواقع ويسجله بموضوعية متلقية بلهاء، بل هو يواجه الواقع المركب فيبقى ويستبعد ويجرد ويفكك ويضخم ويهمش ويصوغ

---

(٤١) المصدر السابق، ص٣٣٥.

(٤٢) المصدر السابق، ص٥١.

(٤٣) عبد المحسن، ماهر: النماذج والآفاق، دراسة في الخريطة الإدراكية عند المسيري وجادامير، مجلة أوراق فلسفية، العدد ١٩، سنة ٢٠٠٨م، القاهرة، ص١٩١.

نماذج معرفية وإدراكية، يدرك من خلالها العالم، وهذا يعني إمكانية تفاوت الإدراك عمقاً وتسطيحاً، واختلافه من شخص لآخر باختلاف التجربة النفسية والحضارية للمدرك[٤٤].

ويرى المسيري أنه من الأفضل أن ندرك حتمية التحيز وحتمية وقوعنا فيه، فذلك سيقلل بلا ريب من خيلائنا، "فنحن لن نتصور البتة أن وجهة نظرنا موضوعية – عالمية، تتفق مع القانون العام، إذ إننا سندرك أن تحيزاتنا تقف بيننا وبين الواقع وتلون إدراكنا بذاتيتنا، ولذا فإننا سنطرح رؤانا بقليل من التواضع والانفتاح، وسنصغي لما يقوله الآخر مدركين أيضاً أن ما سيقوله متأثراً بتحيزاته، مما يجعلنا ندرك أن العملية المعرفية عملية حوارية اجتهادية"[٤٥]، وبدلاً من وضع تحيزاتنا في مقابل تحيزات الآخرين مما يؤدي إلى تفجير الصراع يمكن تباحث التحيزات في إطار الإنسانية المشتركة فكوننا بشر ننتمي لشعوب حضارات مختلفة ولكل منا اختياراته الخاصة، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة التناحر ونفي الآخر[٤٦]، ويجب علينا أن نكون منفتحين على حضارات العالم المختلفة والاستفادة من التقاليد الثقافية والفكرية التي يمكن أن تعمق فهمنا للجنس البشري، والمجتمع، والطبيعة[٤٧].

والمسيري بذلك يتيح إمكانية (الاجتزاء) – كما يسميه وهو فعل واع يقوم به الشخص الواثق من نفسه ومن هويته الإدراكية، ويقف على أرضيته الخاصة، وله تحيزاته الخاصة، وفي نفس الوقت لا مانع لديه من استيراد الأفكار والأشياء من الخارج ولكنه يزن ما يستورده بميزانه، ويعيد صياغته بما يتفق مع معاييره، أي أنه ليس ضد الاستفادة من الآخر، وليس ضد الانفتاح عليه، ولكنه ضد أن يضع له أحد آخر هذا الميزان[٤٨].

وما يقصده المسيري من ذلك أنه ليس بالضرورة أن يتخلى الإنسان عن جميع ما يملك حينما يقوم باستيراد بعض مما لا يملك، بل باستطاعته الاحتفاظ بأرضية الذات العقائدية والفكرية والحضارية، مع فتح باب الاجتهاد مع الآخر، وهو ما يمكنه من تجنب الوقوع في فخ سيطرة وتسلط مقولات الآخر الإدراكية، وهو ما تم وصفه سابقاً بإمبريالية المقولات.

---

(٤٤) المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، د.ط، (القاهرة، دار الهلال)، د.ت، ص٥٣-٥٤.

(٤٥) المصدر السابق، ص٥٧.

(46) Elmessiri M. Abdelwahab: The Gate of Ijtihad: An Introduction to the Study of Epistemological Bias (Epistemological Bias in the Physical and Social Sciences) Edited By: Abdelwahab Elmessiri, International Institute of Islamic Thought, 2013, p.5).

(٤٧) المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، مصدر سابق، ص٥٩-٦٠.

(٤٨) المصدر السابق، ص٦٢.

ولأن بعض التحيزات واضحة واعية، في حين أن البعض الآخر ضمني لا واعي، ويحدث هذا الأخير حينما يعتنق الإنسان مبادئ ومسلمات نظام معرفي ما ودون وعي منه يصبح لا يرى العالم إلا من خلاله[٤٩]، لذلك "فالوعي بالتحيز عند المسيري يعد بمثابة الدرع الواقي من هجمة التحيزات الخارجية الخفية التي تسري كالسم الزعاف داخل النماذج المعرفية المستوردة من الآخر (الغرب تحديداً)" [٥٠].

وهنا يبدأ المسيري بتخصيص الحديث وتحوله بالإشارة تحديداً إلى موقف الخطاب العربي التحليلي، والذي يلخصه بأنه وقوع تام في هذه الإمبريالية، فنحن – بحسب ما يرى – نستورد ما ينتجه الآخر من مناهج ودراسات وأبحاث ونتائج تم التوصل إليها ونستخدمها على ما يخصنا من ظواهر دون وضعنا في الاعتبار خصوصية هذه الظواهر، وما إذا كانت فعلاً هذه المناهج والدراسات قادرة على تقديم العون ولعب نفس الدور الذي لعبته في مجتمعاتها ومع نفس ظواهرها التي انبثقت ووجدت أصلاً – لمعالجتها[٥١].

فهو يرى أن الانحياز للنموذج الثقافي الغربي هو واحد من أكثر أشكال التحيز انتشاراً في جميع أنحاء العالم. والذين تخلوا عن تراثنا فعلوا ذلك دون أن يدركوا الآثار المترتبة على هذا السلوك ومن دون دراسة نقدية خلاقة لكل من الثقافة والتراث، والعالم الإسلامي دخل في صراع مرير مع هذا المكون الثقافي منذ البداية، والذي حُسم في نهاية المطاف بتقسيمه بين القوى الإمبريالية الغربية. وأخيراً ومن أجل اللحاق بالغرب فقد تم تحفيز جميع ما يسمى بمشاريع النهضة في العالم الثالث، فأصبحت النهضة تعني في المقام الأول استيراد الفكر الغربي للمجتمعات العربية والإسلامية، وبالتالي يكون الإصلاح عن طريق تلبية معايير هذا النموذج[٥٢].

ويرى المسيري أن هذه الجهود تسببت بمرور الوقت بتحيز المثقفين العرب للتراث الغربي وإهمال تراثهم، ومثل هؤلاء الناس يشغلون مكانة هامة وخطيرة لأنهم يعيدون تشكيل النظام القيمي وفقاً للطريقة الغربية ونشر نموذجها على المدى الطويل[٥٣]، وهم "يشغلون وظائف قيادية وغير قيادية، فمنهم الصحفيون والمدرسون والأساتذة الجامعيون والإعلاميون والمترجمون وبعض الكتاب الذين يطلق عليهم اصطلاح (المفكرون) والأدباء الذين يسمون

---

(49) Elmessiri: The Gate of Ijtihad, op. cit. p.3.

(٥٠) عبد المحسن، ماهر: النماذج والآفاق، مرجع سابق، ص٢١٢.

(٥١) المسيري، عبد الوهاب: حوارات "الثقافة والمنهج"، مصدر سابق، ص٣٣٧–٣٣٨.

(52) Elmessiri: The Gate of Ijuihad, op. cit. p.4.

(53) Ibid. p.4.

أنفسهم (المبدعون)، كل هؤلاء استوعبوا تماماً النموذج الحضاري الغربي واستبطنوه دون أن يدركوا تضميناته المختلفة. فقد استوعبوه في غالب الأمر باعتباره مجموعة من الأفكار الجميلة النبيلة التي لا تترابط داخل منظومة واحدة، وتحولوا إلى أدوات توصيل جيدة له ولقيمه، أحياناً عن وعي، ولكن في معظم الأحيان عن غير وعي وبدون فهم عميق... وهذه الفئة من المتعلمين هي أخطر القطاعات الثقافية التي تقوم بعملية التغريب، وإعادة صياغة القيم وإشاعة النموذج الحضاري الغربي بكل تحيزاته"[٥٤].

وهو يرى أن وظيفة المثقف في الإطار التصحيحي أن يقدم أطروحات بديلة جديدة على المجتمع، تهدف إلى إصلاحه وتعديل مساره، وحتى لو لم يمكنه وضعها موضع التطبيق، إلا أن عليه الاستمرار في إنتاجها إلى أن تحين اللحظة فتحمل أفكاره وتوضع موضع التطبيق[٥٥]، "إن وظيفة المثقف أساساً هي أن يكون ضمير المجتمع وعقله المفكر الذي يبحث دائماً عن متتاليات جديدة تواكب التغيرات التي تقع في الواقع، ومن ثم فهي صالحة لإدارة المجتمع"[٥٦].

ويشرح المسيري أسباب هذا التوجه نحو النموذج الغربي والتحيز له – سواء كان إرادياً أو لا إرادي – وطرحه كبديل يلغي أصالتنا على مختلف الأصعدة وخاصة على صعيد الخبرة الإدراكية، وهو يلخصه في هزيمتنا إزاء انتصار الغرب.

ومن المعروف أن الطرف المنتصر هو غالباً الطرف الذي يملي الشروط، فهو يتمتع بحق إصدار الأوامر وفرض وجهات نظره على الأطراف الخاسرة وهذه الأخيرة لا يسعها إلا القبول أو المفاوضة في أحسن الأحوال، ومن الممكن أن يتحول المنتصر إلى مثال أعلى يسكن وجدان الخاسر ويستحوذ على إعجابه ويبدأ السعي حثيثاً من أجل محاكاته، ولذلك يقول المسيري: "من الحقائق الأساسية التي تجابه الإنسان في القرن العشرين أن النموذج الحضاري الغربي الحديث أصبح يشغل مكاناً مركزياً في فكر ووجدان معظم المفكرين والشعوب بسبب انتصاراته المعرفية والعسكرية الواضحة في مجالات عديدة، والتي ترجمت نفسها إلى إحساس متزايد بالثقة بالنفس من جانب الإنسان الغربي وإلى إيمانه بأن رؤيته للعالم هي أرقى ما وصل إليه الإنسان، وأن كل التاريخ البشري يصل إلى أعلى مراحله في التاريخ الغربي الحديث، وأن العلوم الغربية

---

(٥٤) المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، مصدر سابق، ص٩٦-٩٧.

(٥٥) المسيري، عبد الوهاب: حوارات "الثقافة والمنهج"، مصدر سابق، ص١٨١.

(٥٦) المصدر السابق، ص١٨١.

علوم عالمية، وأن النموذج الحضاري يصلح لكل زمان ومكان، أو على الأقل يصلح لكل زمان ومكان في العصر الحديث"[٥٧].

أما حالة الطرف المهزوم – بحسب تعبيره – والذي أصبح همه ملاحقة النموذج الغربي بكل تفاصيله، فهو يتحدث عنها باختصار في النص التالي: "ولعله بسبب هزيمة العالم الإسلامي ولأسباب أخرى عديدة... أصبحت محاولة اللحاق بالغرب هي جوهر معظم المشروعات النهضوية في العالم الثالث، بما في ذلك العالم الإسلامي (تماماً مثل تلك الفتاة الإرترية التي كانت تود الزواج من إيطالي)[٥٨]" [٥٩].

وفي نص آخر له يقول: "وأعتقد أنه يتحكم في رؤيتنا للعالم مخزوننا الإدراكي المشبع بالهزيمة، لقد قامت المقولات التحليلية الغربية بغزونا منذ نهايات القرن التاسع عشر وأصبحنا ننظر إلى أنفسنا من خلال المقولات الغربية"[٦٠].

ويرى المسيري أن من أبرز وجوه النموذج الإدراكي الغربي والتحيز له وأكثرها تحقيقاً لفكرة (إمبريالية المقولات) هي سيادة المصطلح الغربي واستحواذه على الخطاب العربي وخاصة الخطاب السياسي.

وهو يرى أن من أسباب عدم جواز استخدام مصطلحات الغير واستيرادها وتبنيها ضمن البنية الأساسية لعملية الإدراك، هو أن (المصطلح) وليد عملية تراكم معرفي وحضاري وممارسات فكرية تتم في إطار معين لمدة من الزمن، ويتبع ذلك محاولة تقنين هذه المعرفة، من

---

(٥٧) المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، مصدر سابق، ص٨٧–٨٨.

(٥٨) من أجل البرهنة على حكاية التحيز للطرف المنتصر يروي المسيري في سيرته الذاتية الحكاية التالية نصاً: "والواقعة التالية سببت لي صدمة حقيقية. كنا – كما أسلفت – نستضيف أنا وزوجتي بعض الطلبة الأجانب، وكان هناك طالبتان من أريتريا تترددان كثيراً على منزلنا، وذات مرة كانتا تتناولان العشاء معنا، وأخذت أمزح مع إحداهن وسألتها عن نوع الرجل الذي تود الزواج به، فتغلبت على حيائها، وقالت: رجل إيطالي. ولما كانت لا تعرف الإيطالية ولم تذهب قط إلى إيطاليا فقد نالت مني الحيرة، فأعملت عقلي إلى أن اكتشفت أن هذه المنطقة من العالم قد غزتها إيطاليا، فولَّد هذا في نفس الفتاة تحيزاً للغازي". (المسري، عبد الوهاب: رحلتي الفكرية، مصدر سابق، ص٣٣٨).

(٥٩) المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، مصدر سابق، ص٨٨–٨٩

(٦٠) المسيري، عبد الوهاب: حوارات "الثقافة والمنهج"، مصدر سابق، ص٢٦٨.

خلال الاتفاق على تحديد المفاهيم لضبط وتنظيم وتأطير ممارسات الفكر في سياق منهجي بعيداً عن الفوضى والشتات الذهني[٦١].

وهو يرى أن ما يحصل هو أن العلوم الإنسانية العربية قد استوردت معظم مصطلحاتها من الخارج، فلم نقم بنحتها بأنفسنا، وقد استخدمناها دون فحص أو تمحيص ودون حتى التأكد من صلاحيتها لنا، ولهذا فقد العقل العربي الحديث القدرة على تسمية الأشياء، ومن لا يسمي الأشياء يفقد السيطرة على الواقع والمقدرة على التعامل معه بكفاءة[٦٢]. بعكس الذي يدرك الواقع حق الإدراك ثم يصنفه حسب مقولاته، ويطلق عليه المسميات التي تتفق مع هذا الإدراك فيمكنه الحركة فيه بحرية أكثر، فهو سيراكم معلوماته داخل مقولاته هو، وهو الأمر الذي سيزيد من مقدرته على التنبؤ بمسار هذا الواقع ويحسن من مقدرته على التعامل معه[٦٣].

والمسيري لا يرفض بشكل مطلق عملية استيراد المصطلحات، فهناك بعض المصطلحات ذات الحقل الدلالي الضيق، والتي لا يصعب معرفة المقصود منها، كاستخدامنا لكلمة (سيارة) و(تلفزيون)، فالعلاقة بين الدال والمدلول أو المصطلح بالشيء واضحة ومحددة بشكل كبير، فالمصطلح بسيط، والشيء المشار إليه محدود الدلالة، لذا فالثغرة بينهما ضيقة[٦٤].

كما أنه يتساهل إلى حد ما في مسألة نقل المصطلح في مجال العلوم الطبيعية، فالتجربة العلمية إلى حد كبير مضبوطة، حُيد فيها بعد الزمان والمكان إلى حد ما، ولهذا فإنه يعتبر أن

---

(٦١) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني "دراسة نظرية وتطبيقية"، ط١، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٣م، ص٢٣.

(٦٢) "تبدو الثقافة العربية اليوم من أكثر ثقافات العالم غياباً لعملية توليد المصطلح الخلاق المبدع فيها، فنحن نعيش إشكالية حقيقة تأزم حركة الإبداع في فضائنا الثقافي، مما يجعلنا نستعين بمصطلحات الآخر (الغرب بالضرورة) لنقع في إشكال قد لا يقل سوءاً عن حال افتقارنا للمصطلح المبدع في ثقافتنا العربية". (الهلال، أحمد: أزمة المصطلح في العقل العربي، مقال على موقع اليوم، ٣٠ يونيو ٢٠٠٤.
www.alyaum.com/artical/3148399
يوم ٢١ يناير ٢٠١٤، الساعة ٣,٢٣.

(٦٣) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، مصدر سابق، ص٢٤.

(٦٤) المصدر السابق، ص٢٤.

عملية نقل المصطلحات فيها مسألة أكثر سهولة من نقل مصطلحات العلوم الإنسانية، وبالرغم من ذلك – بحسب ما يرى – فهي عملية لا تخلو من المخاطر والمزالق[٦٥].

أما بالنسبة للعلوم الاجتماعية والإنسانية فإن الصورة مركبة إلى أقصى حد، وذلك لأن كل مصطلح متجذر في تشكيل حضاري معين له لغته المعجمية والحضارية الفريدة، والدال والمدلول مرتبطان بهذا التشكيل الحضاري، ويشيران إلى مدلول خارجي فحسب، بل هو يحتوي أيضاً على وجهة نظر من قام بنحته وزاوية رؤيته واجتهاداته[٦٦].

ويرى المسيري أن الأمور تزداد سوءاً حينماً تكون المصطلحات ذات طابع عقائدي من مصلحة طرف ما نشرها والترويج لها، ومن أبرز هذه المصطلحات تلك المستخدمة في وصف الظواهر اليهودية والصهيونية، وهنا يمكن القول إن هاجس المسيري المنهجي في هذه الحالة، هو "كيف نتمكن من دراسة الشأن اليهودي الصهيوني دون أن نسقط ضحية لسيطرة المقولات الغربية، ودون أن نجرد أعضاء الجماعات اليهودية من السياق التاريخي والاجتماعي، ودون تحيزات الآخرين، سواء مع اليهود أو ضدهم؟"[٦٧].

هذه المصطلحات – المتعلقة بدراسة اليهودية والصهيونية – هي في معظمها تم نحتها ضمن السياق الحضاري الغربي، وتجاربه التاريخية ونماذجه ورؤاه المعرفية، وهي تحتوي على تحيزات إمبريالية وعرقية لا علاقة لنا بها ولا نشارك فيها، بل ونرفضها. وبناء على هذه التحيزات تم تضخيم كثير من جوانب بعض الظواهر وإهمال الجوانب الأخرى، وأيضاً تم افتراض وجود وحدة حيث لا وحدة وانفصام حيث الترابط[٦٨].

---

(٦٥) في نفس السياق يقول المسيري: "وكلمة (مصطلح) ذاتها تبين أن التحيز مكون أساسي فيها، فهي من فعل (اصطلح)، فيقال (اصطلح القوم) أي (زال ما بينهم من خلاف) و(اصطلحوا على الأمر) أي (تعارفوا عليه واتفقوا) و(الاصطلاح) معناه اتفاق طائفة ما على شيء مخصوص، ولذاُ سمي علم الاصطلاح (علم التواطؤ)، ولكل علم اصطلاحاته. و(الاصطلاح) في العلم هو اتفاق جماعة من الناس المتخصصين في مجال واحد على مدلول كلمة أو رقم أو إشارة أو مفهوم، وذلك يتم عادة نتيجة تراكم معرفي وحضاري وممارسات فكرية تتم في إطار معين لمدة من الزمن، ويتبع ذلك محاولة تقنين هذه المعرفة". (المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، مصدر سابق، ص١٦٧–١٦٨).

(٦٦) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، مصدر سابق، ص٢٤–٢٥.

(٦٧) حنفي، مصطفى: قضايا المنهج في الدراسات اليهودية (في عالم عبد الوهاب المسيري "حوار نقدي حضاري")، ط١، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٤م، ص٢٧٨.

(٦٨) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، مصدر سابق، ص٢٦.

وهو يرى أنه إذا ما تم طرح العديد من المصطلحات وخاصة تلك المتعلقة بالصراع العربي الصهيوني، لوجدنا أن ما فعلناه هو أن طائفة كبيرة من تلك الترجمات (الببغائية) والتي تسمى (ترجمات أمينة) قد تبنت الكثير من المفاهيم الصهيونية المضللة، والتي لا تهدف في الأساس إلا لإسباغ قدر من الشرعية على المخطط الصهيوني في اغتصاب الأرض العربية وفرض الهيمنة عليها[٦٩]. وعلى رأسها مصطلح (الصهيونية العالمية) وهو ثمرة الترجمة الأمينة المعرفية لكلمة (Worldzionism) وهو مصطلح – بحسب ما يرى المسيري – كان من الأفضل والأجدى لنا استبداله بمصطلح (الصهيونية الغربية) فالصهيونية في حقيقتها إفراز حركات التاريخ الغربي ولا يمكن فهمها إلا داخل هذا الإطار[٧٠].

كما أن الصهيونية ليست بظاهرة عالمية، وإذا تم التخلي عن المقولات الإدراكية المستوردة، واعتمدنا مقولاتنا الخاصة النابعة من نماذجنا المعرفية وتحيزاتنا الإدراكية لتبين لنا ذلك أو على الأقل لبذلنا جهداً أكبر للتحقق من مصداقية كونها عالمية، الأمر الذي يتنافى مع الحقيقة، فالكثير من مناطق العالم ليس بها يهود ولا علاقة لها بالصهيونية، وأن الغالبية العظمى من يهود العالم – وهم حوالي أكثر من تسعين بالمائة – قد تركزت في العالم الغربي منذ القرن التاسع عشر وازدادوا في القرن العشرين[٧١].

وفي هذه الحالة يرى المسيري أن ما حصل هو أننا حينما استوردنا المصطلح واستخدمناه لم ندرك أن المفهوم الكامن وراء المصطلح نابع من أيديولوجية شاملة، لا هي موضوعية ولا محايدة، وإنما تخفي تحيزاً لآمال وطموحات ومشاريع أصحابها، فالصهيونية تدعي أنها تعبير عن (القومية اليهودية) (Jewish Nationalism) – أي أنها قومية اليهود – كل اليهود في كل مكان، وبما أنهم موجودون في كل بقاع الأرض – حسب تصورهم – فهي إذاً عالمية[٧٢]، "كما أن لفظة (عالمية) تضفي تفخيماً على المصطلح وتضفي على الصهيونية هيئة لا تستحقها، ورهبة لا تنبع منها، وقوة ليست لها ولا تمتلكها"[٧٣].

ويرى المسيري أن الشيء نفسه ينطبق على مصطلح (مستوطنة) وهو الترجمة الحرفية للكلمة (Settlement)، وهي مأخوذة من التوطين (Settlement) والوطن (Settle)، وكان

---

(٦٩) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، ط١، (دمشق، دار الفكر)، ٢٠٠٦م، ص١٢٢.

(٧٠) المسيري، عبد الوهاب: أسرار العقل الصهيوني، مصدر سابق، ص١٥.

(٧١) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، مصدر سابق، ص١٢٢.

(٧٢) المصدر السابق، ص١٢٢.

(٧٣) المسيري، عبد الوهاب: حوارات "الثقافة والمنهج"، مصدر سابق، ص٣٤٩.

من المفترض بنا أن نترجمها بكلمة (مستعمرات استيطانية)، وأن الأمور تزداد سوءاً وكوميدية حينما نستخدم ونردد مصطلح (Illegal Settlements) (مستوطنات غير شرعية)، وهو مصطلح يستخدم في الخطاب السياسي الإسرائيلي للإشارة للمستوطنات (العشوائية) والتي تشيد بدون الحصول على تصريح من الحكومة الإسرائيلية، وكأن باقي المستعمرات المشيدة بإذن هي (مستوطنات شرعية) ولم تقم على أرض مغتصبة، وهو يصف ترديد هذه المصطلحات بأنه ترديد ببغائي[٧٤].

ومن الجدير بالذكر أن الصهاينة يدركون تمام الإدراك أهمية المصطلح وأهمية تسمية الأشياء والتلاعب بها بما يخدم ويعكس الرؤية الصهيونية ويروج لها، وأهمية إشاعة هذه المصطلحات من خلال الإعلام الغربي – والذي بلا ريب – يساند المشروع الصهيوني ويشاركه التحيزات، والتخطيط لهذا "يجري في الكيان الصهيوني على يد علماء بالسياسة وعلم النفس السياسي، ويعتمد هذا الإعلام حتى الآن على مختلف المداخل مهما بدت متواضعة وبسيطة بهدف الترويج للموقف الصهيوني، وتوسيع نطاقه لخدمة الأغراض السياسية الصهيونية وطمس الصوت الآخر"[٧٥][٧٦].

ومن أبرز المصطلحات المشبعة بكل المفاهيم والثوابت الصهيونية التي تم الاتفاق بين الصهيونية وأجهزة الإعلام الغربي للترويج والدعاية لها – بحسب ما يرى المسيري – هو مصطلح (الإرهاب) (Terrorism) وهو مصطلح قد ينساق البعض في عالمنا العربي إلى

---

(٧٤) المصدر السابق، ص٣٤٩.

(٧٥) الفضالة، ناصر: الإعلام وطمس الحقائق على الطريقة الصهيونية، ٢٠٠٤/٩/٢٦ مقال على موقع إسلام ويب
Articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=7359
يوم ٢٠ يناير ٢٠١٦، الساعة ٢٠,١٦

(٧٦) والمسيري يرى أن الصهيونية تعاني تكاثراً مفرطاً للمصطلحات، فيقول: "من مظاهر الأزمة الصهيونية (التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية) وهذا التكاثر المفرط هو سمة أساسية للفكر الصهيوني منذ ظهوره، فهناك (الصهيونية الدبلوماسية) و(الصهيونية السياسية) و(الصهيونية العامة) و(الصهيونية العمالية) و(الصهيونية الاشتراكية) و(الصهيونية التصحيحية) و(الصهيونية التوفيقية) و(الصهيونية الإقليمية) و(صهيونية بدون صهيون)، (صهيونية صهيون)، (الصهيونية المسيحية) و(صهيونية الأغيار)". (المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية في مائة عام، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد ٢٧، ص١٩٣).

استخدامه دون وعي وإدراك بأبعاده ومضامينه التي قد تكون مضادة تماماً لتصوراتهم ومواقفهم[٧٧].

ويرى المسيري أن الإرهاب هو مصطلح تم نحته من قبل الصهاينة وأصدقائهم في الولايات المتحدة الأمريكية، وتم استخدامه لتصوير المقاومة الفلسطينية وكأنها مجرد عمل إرهابي نتيجة شر متأصل في النفوس العربية وكره فطري ليس له أي أساس قانوني أو أخلاقي، وهو موجه ضد اليهود الطيبين الذين يودون العيش في أمان وسلام، بل يتمادى الصهاينة بالقول إن الإرهاب العربي ضد المستوطنين الصهاينة ليس إلا استمراراً لظاهرة معاداة اليهود واليهودية – معاداة السامية في المصطلح العربي – وكره الأغيار لليهود عبر التاريخ[٧٨][٧٩].

وهو مصطلح يتضمن تحيزاً لفكرة شرعية الوجود الصهيوني في فلسطين والذي لابد للعرب من قبوله إن كانوا عقلانيين، أما مقاومته فهي ليست إلا عملاً إرهابياً غير عقلاني وغير شرعي، ولذا فإن صورة الفلسطيني المقاوم الذي يدافع عن وجوده ضد الغزاة المحتلين تبدو وكأنها صورة (المجنون) الذي يتلذذ بإراقة الدماء في إطار من العبثية الدموية التي لا طائل منها ولا هدف لها[٨٠].

وبناء على الرؤية التي يتضمنها هذا المصطلح فإنه يتم تجاهل أي بحث أو تداول لمدى شرعية الوجود الصهيوني – نفسه – في فلسطين، بل إن الموضوع غير وارد من الأساس، وكما يتم تجاهل أنه لا سند له إلا القوة العسكرية والدعم الغربي فحسب، ويتم – أيضاً – تجاهل الكثير من الحقائق التاريخية والجغرافية، من قبيل الحق التاريخي الثابت للشعب الفلسطيني[٨١].

---

(٧٧) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، مصدر سابق، ص١٢٣.

(٧٨) المصدر السابق، ص١٢٣.

(٧٩) "لقد تطور استخدام مصطلح الإرهاب بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد وراثة الولايات المتحدة الأمريكية الإمبراطوريات الاستعمارية المنهارة وظهور الاستعمار بحلته الجديدة، ومحاولة الولايات المتحدة بسط نفوذها وسيطرتها على أكبر مساحة من العالم، بواسطة الأحلاف والتكتلات العسكرية والاقتصادية، وبالتالي أصبحت تهمة الإرهاب تلتصق بالدول الخارجة عن إرادة الولايات المتحدة وبحركات التحرر التي تناضل من أجل نيل استقلال بلادها". (النجار، وئام محمود سليمان: التوظيف السياسي للإرهاب في السياسة الخارجية الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١-٢٠٠٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، ٢٠١٢م، غزة، ص٢٧-٢٨).

(٨٠) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، مصدر سابق، ص١٢٣-١٢٤.

(٨١) المصدر السابق، ص١٢٤.

ورفض هذا المصطلح وإخضاعه للنقد والتفكيك لابد أن يتم ضمن إطار تأكيد استعمارية وإحلالية الظاهرة الصهيونية، فهي ليست سوى فصل من فصول التاريخ الاستعماري الغربي لشعوب العالم والتي تمتد من الجزائر إلى فيتنام ومن الهند إلى جنوب أفريقيا[٨٢].

ويرى المسيري أن هناك العديد من المصطلحات التي ظهرت لتدور في نفس النطاق للمصطلح السابق، مثل (إيقاف العنف) و(وقف إطلاق النار) و(ضبط النفس)[٨٣]، في إشارة لما يحدث في فلسطين من عمليات عسكرية، وهي في حقيقتها مصطلحات تحمل تحيزات محددة، تشير في معظمها إلى تساوي الطرفين من حيث القدرة العسكرية، وكأن هناك حالة حرب بين جيشين متكافئين ومتعادلين في القوة، وليست بين شعب يدافع عن أرضه وكرامته وإنسانيته من جهة، وبين من يغتصب الأرض وينكل بأصحابها ويستخدم أغلى وآخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية من جهة[٨٤].

ويقول المسيري: "ولنتصور لو سميت الأشياء بأسمائها وقلنا (إيقاف المقاومة) أو على العكس قلنا (إيقاف أعمال الاغتصاب والقمع الإسرائيلي) ألن يكشف هذا التحيزات الكامنة"[٨٥][٨٦].

---

(٨٢) المصدر السابق، ص١٢٤.

(٨٣) يتحدث الباحثان (ناصر الغالي، والجمعي بولعراس) عن مأزق اللغة العربية مع مصطلحات تم توظيفها سياسياً لخدمة جهات معينة وتوجيه الأحداث الدولية لصالحها، وخاصة فيما ارتبط بالصراع العربي الإسرائيلي، وهذا ما يلخصه النص التالي: "فمثلاً عبارة (الأرض مقابل السلام) و(الشرعية الدولية) و(ضبط النفس) التي استغلتها إسرائيل قائلة: إن (الأرض) تعني (أرض)، أي أية قطعة أرض وليس بالضرورة كامل الأرض (التي احتلتها عام ١٩٦٧م) وأصرت على أن (السلام) ليس أي (سلام) بمعنى أن (أل) التعريف أصبحت للتنكير بفعل المكر السياسي، ومن ثم سعي لاختراق العالم العربي سياسياً واقتصادياً وأمنياً، مع أن السلام معجمياً يعني (عدم الاعتداء المتبادل)، إذن نحن في لعبة اسمها سياسة اللغة، وهي لعبة مدلولها ليس لفظياً بل يؤول حسب الاعتباط إلى مدلولات ذاتية تستقبل وتصبح بفعل الاستهزاء عملية". (التعبيرات الاصطلاحية في لغة الخطاب السياسي العربي ومواجهة الأحداث الدولية "قراءة سوسيوثقافية"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد ٢، سنة ٢٠١٢م، ص٧٥).

(٨٤) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، مصدر سابق، ص١٢٥-١٢٦.

(٨٥) المصدر السابق، ص١٢٦.

(٨٦) ولمزيد من التفاصيل يقول المسيري: "(وقف العنف) و(ضبط النفس) هما جزء من خط طويل من المصطلحات المتحيزة ضدنا، فنحن نرى أن وجود القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية هو احتلال للأراضي الفلسطينية وتؤيدنا في ذلك قرارات الأمم المتحدة، ولكن إسرائيل والولايات المتحدة يستخدمون بدلاً من ذلك عبارة (أرض متنازع عليها) (Disputed Territory) وقد تحدثوا بعض الوقت عن (الأرض

ومن المصطلحات المحورية والمهمة والتي تلعب دوراً أساسياً في بنية الخطاب الصهيوني، مصطلح (الشعب اليهودي) (Jewish People) وهو يرجع في أصله للمصطلح التوراتي (الشعب المختار)[٨٧] (Chosenpeople) أو (الشعب المقدس) (Holy People)، وهو مصطلح يتصور أن اليهود في كل زمان ومكان يشكلون كتلة بشرية تتسم بقدر عال من الوحدة والتماسك والاستمرارية[٨٨]، ولها (تاريخ يهودي) – وهو أيضاً مصطلح أساسي في الخطاب الصهيوني – وهو ما يتنافى تماماً مع حقيقة الوضع القائم[٨٩]، فاليهود "كانوا عبرانيين في بادئ الأمر ثم تطورت عقيدتهم من العبادة الإسرائيلية القربانية إلى العقيدة اليهودية الحاخامية، وتفرع عنها المحافظون والإصلاحيون والأرثوذكس، ثم اليهود الملحدون والإثنيون وغيرهم. وتوجد عشرات الجماعات اليهودية غير المتجانسة سياسياً وحضارياً"[٩٠]، ما يفند حقيقة أنهم شعب واحد له تاريخ واحد، بل هم جماعات يهودية عاشت في أماكن وبقاع مختلفة في أزمنة وحقب تاريخية مختلفة وعملية جمعها تحت مسمى واحد هو (الشعب اليهودي) – سواء كان مختاراً أو غير مختار – الذي عاش أحداثاً تاريخية مشتركة في كل مكان وفي كل زمان أسموها (التاريخ اليهودي) (Jewish History)، أقول إن عملية الجمع هذه وإيجاد وحدة حيث لا وحدة ولا ترابط هو عمل يحمل تحيزات للأيديولوجيا التي تخدم الظاهرة الصهيونية وتحقق أغراضها.

مقابل السلام) وقد تطور هذا ليصبح (الأرض مقابل الأمن) و(الأمن مقابل الأمن) إلى أن تدهور الأمر تماماً وأصبحت المسألة (الأرض مقابل الكلام)، وكل هذه الشعارات تهدف إلى فرض المفاهيم الصهيونية الأمريكية في السلام، والتي تعني في واقع الأمر نسيان المرجعيات القانونية والدولية والأخلاقية والإنسانية العامة، والاستسلام للأمر الواقع الظالم، وقبول تقسيم دولة فلسطين إلى كانتونات، وبقاء المستوطنات، والرضوخ للمطالب الإسرائيلية في القدس الشرقية، وأخيراً التنازل عن الحق الفلسطيني التاريخي في عودة اللاجئين الفلسطينيين". (في الخطاب والمصطلح الصيهوني، مصدر سابق، ص٢٤٧-٢٤٨).

(٨٧) يرجع أصل التسمية إلى النص الوارد في التوراة في (سفر التثنية) الإصحاح الرابع عشر، الآية الثانية "لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض".

(٨٨) للتعبير عن هذه الوحدة تم نحت مصطلح (وحدة الشعب اليهودي) (Unity of the Jewish People).

(٨٩) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، مصدر سابق، ص١٢٦.

(٩٠) المصدر السابق، ص١٢٦-١٢٧.

وأيضاً: المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، مصدر سابق، ص١٨٩.

كما أن هناك مصطلحات أخرى تدور في فلك المصطلحات السابقة وتتضمن نفس التحيزات وتؤدي إلى نفس النتيجة الترويجية، وهي – أيضاً – مصطلحات اخترقت معجمنا وتم تبنيها واستخدامها من قبل الخطاب العربي دون وضعنا في الاعتبار أنها تكرس فكرة أحقية الشعب اليهودي في أرض فلسطين، باعتبار أنها وطنهم الأصلي وديارهم التي هجروا منها، وهذه المصطلحات هي: (الشتات) و(المنفى) و(الدياسبورا)[٩١] (Diaspora)، فهي "مصطلحات تفترض أن ثمة علاقة عضوية بين (الشعب المختار) و(الأرض الموعودة) أو بين اليهود وفلسطين"[٩٢].

ولأن اليهود شعب الله المختار المرتبط بأرضه ارتباطاً مقدساً، لذا فإنه حينما تم تشتيته وتهجيره قصراً، فقد أصبح في حالة (شتات) وبُعد عن الوطن يعيش في (المنفى) في ديار غير دياره وأرض غير أرضه، لذا فهو في حالة تأهب وانتظار للعودة إليها، وحينما تحين الفرصة فله كل العذر في ذلك، ولذا فهم حين يفعلون ذلك ليسوا بمغتصبين، وبالتالي فوجودهم في فلسطين وجود شرعي تبرره الديباجة الصهيونية العامرة بالمصطلحات التي تخدم هذا الغرض.

ويقول المسيري: "وغني عن القول إن مصطلح (العودة)[٩٣] شأنه شأن المصطلحات الأخرى (الشعب اليهودي) و(التاريخ اليهودي) و(الشتات) و(النفي) التي تشكل حجر الأساس في العقيدة الصهيونية تتنافى كلها تماماً مع الواقع التاريخي للجماعات اليهودية وفلسطين. ففلسطين عامرة بسكانها، واليهود ليسوا شعباً كما أسلفنا، بل جماعات، وهم لا يريدون العودة إلى أرض الأجداد، فهم قابعون بأوطانهم التي يقطنون فيها، وإلا فلم ظل غالبية أعضاء (هذا الشعب) في

---

(٩١) للتعريف بالمصطلحات الواردة أعلاه يقول المسيري: "تشير كلمة (جالوت)، أو (جولا) إلى المنفى، والمنفى القهري بالذات خارج إرتس يسرائيل أي فلسطين... ولذا فهي تترجم عادة إلى العربية بكلمة (المنفى) كما تستخدم كلمة (دياسبورا) أي (الشتات) للإشارة إلى الجماعات اليهودية التي تعيش مشتتة بين الشعوب الأخرى... وتعني الكلمات السابقة (المنفى) و(الدياسبورا) و(الشتات) و(المهجر) وجود أعضاء الجماعات اليهودية المؤقت خارج إرش يسرائيل (أي فلسطين) حتى تتحقق لهم الحالة الأصلية العادية والطبيعية بعودتهم إليها". (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الموجزة)، ط٥، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٩م، مج١، ص٦٩).

(٩٢) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، مصدر سابق، ص١٢٧.

(٩٣) (Return) "تشير كلمة (العودة) في الأدبيات اليهودية والصهيونية إلى عودة اليهود إلى فلسطين، أي (إرش يسرائيل) أو (صهيون) أو (أرض الميعاد) بعد نفيهم منها. وقد تكون العودة تحت قيادة الماشيح، وقد يقوم بها اليهودي بإرادته، دون انتظار مشيئة الإله". (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الموجزة)، المجلد١ ، مصدر سابق، ص٧١).

أوطانه ولم يسارع بالهجرة أو بالعودة إلى وطنه الأصلي؟ ولم لا تزال غالبية يهود العالم خارج وطن الأجداد، تتمتع بمستويات معيشية مرتفعة في الولايات المتحدة وكندا وفرنسا واستراليا...إلخ، ويعانون من معدلات عالية من الاندماج والزواج المختلط[٩٤].

وبالإضافة إلى المصطلحات اليهودية والصهيونية التي تم ذكرها – وكثير غيرها لم يتم التطرق له – والتي يعارض المسيري مسألة تبنيها من قبل الخطاب العربي واستخدامها دون فحص وتمحيص لمحتواها ومدلولها وبعدها الإدراكي، يتحدث عن مصطلح مهم ورائج الاستخدام من قبل الخطاب التاريخي والتحليل السياسي العربي المعاصر، هو مصطلح (رجل أوروبا المريض)[٩٥]، والذي تمت ترجمته بأمانة شديدة وتم إدخاله المعجم التحليلي العربي دون وضعنا في الاعتبار أي دور ترويجي يمكن أن يلعبه وأي نتيجة يمكن أن يؤدي إليها استخدام هذا المصطلح.

يقول المسيري: "ولنضرب مثلاً: من المصطلحات التي ترجمناها بأمانة شديدة وأدخلناها في معجمنا التحليلي اصطلاح (رجل أوروبا المريض)، والإشارة هنا إلى صورة رجل يحتضر يعالج سكرات الموت وهو الدولة العثمانية. والصورة التي يجسدها المصطلح تجعلنا ننظر إلى هذا الرجل بكثير من الاشمئزاز على أسوأ تقدير، وبكثير من الشفقة (دون احترام) على أحسنه، وننسى تماماً أن الدولة العثمانية – رغم ضعفها واستبدادها – كانت تحمي شعوبها من الهجمة الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره، وننسى أن رجل أوروبا لم يكن من أوروبا، وإنما كان يقف على رأس الشرق الإسلامي زعيماً وقائداً له. ومن الواضح أن صورة رجل أوروبا المريض تعكس منظوراً غربياً للقضية، ينظر للدولة العثمانية باعتبارها ميراثاً سيقسم ويوزع بين القوى الغربية، وهي رؤية لا علاقة لها من قريب أو بعيد برؤية شعوب هذه المنطقة. فالمصطلح... سُك في الغرب ويحمل منظوراً غربياً"[٩٦][٩٧].

---

(٩٤) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، مصدر سابق، ص١٢٧–١٢٨.

(٩٥) (The Sick Man of Europe) مصطلح يستخدم للدلالة على الدولة العثمانية إبان انهيارها. (المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج٤، (مصر، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم)، ٢٠٠١م، ص٢٥٦).

(٩٦) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، مصدر سابق، ص٢٥.

(٩٧) وعلى غرار مصطلح (رجل أوروبا المريض) فقد تم استخدام مصطلح مشابه للإشارة إلى الصين فترة حكم إمبراطورية (شينغ) التي استمرت من (١٦٤٤–١٩١٢م)، وهو (رجل آسيا المريض)، وقد أطلق عليها

وهو يذكر في هذا السياق إن هذا المصطلح يشير إلى رجل يوجد على حدود أوروبا، ولكنه ليس منها، وبالتالي فإنه سيقوم بتحديد مجال الرؤية التاريخية المسموح لنا بالتحرك فيها، ومن ثم فإنه سينسينا رجلاً آخر أكثر أهمية وهو (رجل أوروبا النهم المفترس) والمتمثل في الإمبريالية الغربية التي كانت – في ذلك الوقت – تبيد سكان أفريقيا كما أبادت أعداداً هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان استراليا ونيوزيلندا، وكانت في الوقت ذاته تخوض حرباً ضارية لتسويق الأفيون في الصين لنشر الغيبوبة الدائمة بين ربوعها، هذا الرجل النهم الذي لم يكن يشبع كان رابضاً على حدود العالم الإسلامي بعد أن التف حوله عدة قرون، خشية (الرجل العثماني الذي كان لا يزال بعافيته) منتظراً أن يحل الوهن به، وهو ما نجح في القيام به، فكان يدس له السم بين الفينة والفينة، حتى تمكن منه أخيراً، كل هذه الظلال والمعاني والدلالات اختفت تماماً بسبب مصطلح (رجل أوروبا المريض) التي رسمت أمامنا صورة أخفت الرجل النهم)[٩٨].

إذاً فإن ما يقصده المسيري هو أن عملية الإدراك محفوفة بالمخاطر، وأي عدم اكتراث أو عشوائية أو سلبية ستؤدي بنا إلى انحراف خطير، لدرجة تصل إلى تبني النماذج والمقولات الإدراكية للفريق أو الطرف المعادي لنا – وما يشكله من خطر علينا – والدليل على ذلك استبطاننا واستخدامنا لمجموعة من المصطلحات والمفاهيم الأساسية التي تشكل العمود الأيديولوجي لأخطر وأشرس كيان معادي لنا – نحن العرب – في العصر الحديث والمعاصر، وهو العدو الصهيوني، والذي لا يستهدف القضاء على هويتنا الإدراكية – فحسب – بل يتعداها – وهو حقيقة معروفة للجميع – إلى السعي إلى القضاء على كل ما هو عربي على وجه الأرض، من دون أن نلاحظ أن هناك هدفاً خفياً تتحيز له هذه المصطلحات والمفاهيم وأننا نساهم دون أن ندري في تحقيق هذه الأهداف، فمنظومة المصطلحات الصهيونية التي تدور في مجملها حول فكرة خصوصية الوضع اليهودي وتفرده تهدف إلى تضخيم قوة الكيان الصهيوني وأسطوريته واستحالة هزيمته، فالصهيونية ليست إلا تحقق إرادة الإله ووعده لشعبه المختار بعودته إلى أرضه الموعودة، وأن مهمته في فلسطين مهمة مقدسة تتعالى على الواقع الإنساني، ومن خلال

هذا اللقب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. (الشماوي، شادي: الثورة الماوية في الصين، "حقائق ومكاسب ودروس"، د.ط (د.م، د.ت)، د.ت، ص١٠).

وأيضاً: (رجل آسيا المريض https://ar.wikipedia.org/wiki)

يوم ٢٣ يناير ٢٠١٦، الساعة ٢٠,٠٩.

(٩٨) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، مصدر سابق، ص٢٥-٢٦.

زرع هذه المفاهيم واستبطانها – من دون وعي من طرفنا – سيتم إثباط العزيمة العربية في إمكانية الانتصار ولا حتى خوض الحرب من الأساس.

إذاً فالسبب الأساسي في عملية التسليم بهذه المفاهيم والمصطلحات المؤيدة لها والوقوع في شركها، هو ما يمكن (تسميته بالموضوعية) – وهي التي أسماها المسيري (الموضوعية المادية المتلقية) أو (الفوتوغرافية) كما سبق – و"التلقي الموضوعي المادي للمعلومات الذي يؤدي إلى تراكم المعلومات الصماء التي لا تقول شيئاً والتي تخفي كثيراً من المفاهيم والتضمينات الفلسفية والمعرفية المتحيزة"[٩٩]، وقد تمت الإشارة سابقاً إلى أن الأسلوب الأمثل من أجل "التوصل إلى معرفة حقيقية تستند إلى رصد دقيق ومركب للواقع"[١٠٠] هو – كما يرى المسيري – (الموضوعية الاجتهادية التفسيرية).

والسؤال هنا: ما هي آلية العملية الإدراكية وفقاً لهذا النوع من الموضوعية؟ أي كيف تتم عملية الإدراك؟ وكيف يتم تفادي سلبيات الموضوعية المتلقية وهي النوع الذي يرفضه المسيري؟ وما هي النتائج المحتملة لهذا النوع من الإدراك؟

يقول المسيري ما نصه: "وجدت أنه من الأجدى استبعاد مصطلحي (موضوعي) و(ذاتي) (فهما يفترضان موضوعاً قائماً في حد ذاته، وذات مستقلة، منعزلة لا تتعامل مع الموضوع)، وأحللت محلها مصطلحي (أكثر تفسيرية) و(أقل تفسيرية)، فهما أكثر دقة في وصفهما لعملية الإدراك والتفسير، والمعيار هنا ليس مدى الدقة أو كم المعلومات أو مدى مطابقة المعلومة للواقع وإنما المقدرة التفسيرية للمصطلح أو الأطروحة. فإذا كانت الأطروحة التي يأتي بها الدارس تفسر عدداً من المعطيات يفوق العدد الذي تفسره الأطروحات السائدة، فهي (أكثر تفسيرية)، وهي عبارة تحل محل (موضوعي). وإن كان عددها أقل فهي (أقل تفسيرية) وهي عبارة تحل محل مصطلح (ذاتي). ويتميز هذان المصطلحان بأنهما لا يخضعان للواقع بطريقة موضوعية ذليلة ولا يتجاهلانه بطريقة متعجرفة ذاتية فهما يؤكدان أهمية العقل ومقدرته على التفاعل مع الموضوع وربط المعطيات المختلفة. كما أن المصطلحين الجديدين أكثر انفتاحاً، فالباحث يقدم أطروحته لتختبر على محك الواقع الموضوعي، لا لتقبل أو ترفض، فبعد اختبارها إن وجدها الباحث أكثر تفسيرية أخذ بها، وربما أضاف إليها ليجعل مقدرتها التفسيرية أعلى، أما إذا كانت أقل تفسيرية فإنه يشير إلى نقائصها ويكملها. ولذا أسمي هذا النوع من التفكير

---

(٩٩) المسيري، عبد الوهاب: في دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٧٧.

(١٠٠) المصدر السابق، ص٣٧٧.

(الموضوعية الاجتهادية التفسيرية) في مقابل (الموضوعية المتلقية أو الفوتوغرافية)، وهي ألا ينقل الإنسان الواقع بحذافيره وكأنه ببغاء أو آلة تصوير بلهاء، وإنما يعمل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل ويجرد منها أنماطاً متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل"[١٠١].

هذه الموضوعية – كما يراها المسيري – ترفض كل من الموضوعية المتلقية والذاتية المغلقة، وتنطلق من تقبل حقيقة ثنائية الإنسان والواقع المادي أو – بحسب تعبيره – ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة، وبالتالي ثنائية الذات والموضوع، ولا تحاول إلغاء أحدهما، وإنما هي في حقيقتها محاولة للوصول لنقطة التقاء الذات بالموضوع[١٠٢].

سمات المنهج الموضوعي الاجتهادي التفسيري:

تدور السمات الأساسية للمنهج الموضوعي الاجتهادي عند المسيري حول مفهوم محوري في مشروعه الفكري ورؤيته الفلسفية هو خصوصية الظاهرة الإنسانية، واختلافها الكلي عن الظواهر الطبيعية المادية، وعدم مطلقية القوانين التي تحكمها، واتصال وارتباط هذه المسلمة بمسلمة أخرى وهي أن "العقل الإنساني ليس كياناً مادياً وكماً سلبياً متلقياً، فهو لا يسجل كل شيء، فهو محدود ولأنه محدود فإنه يختار ويبقى ويستبعد، وهو كيان مبدع له مقدرات توليدية"[١٠٣]، وعلاقته بالواقع ليست علاقة آلية بسيطة، فالذات المدركة بما تحمله من أساطير وهموم وخيال وأيديولوجيا ونوايا وذكريات، هي عنصر أساسي في العملية الإدراكية[١٠٤].

لذلك لا يمكن دراسة الظاهرة الإنسانية ورصدها كما هو الحال مع الظواهر الطبيعية، فلا يمكننا تسجيل سلوك الإنسان كما نسجل سلوك باقي الكائنات، ولابد لفهمه من فهم دوافعه الداخلية وعدم الاكتفاء بدراسة السلوك الخارجي له[١٠٥]، وبالتالي فإنه لا يوجد قانون واحد عام يسري على كل الظواهر الإنسانية[١٠٦].

لذا فدراسة الظاهرة الإنسانية لا تنجح باستخدام التفسيرات السريعة المباشرة التي تنظر لظواهر الأمور وتختزلها في بعد واحد روحي أو مادي، لذلك "لابد من بذل المحاولة للتركيب

---

(١٠١) المصدر السابق، ص٣٧٧-٣٧٨.

(١٠٢) المصدر السابق، ص٣٧٨.

(١٠٣) المصدر السابق، ص٣٧٨.

(١٠٤) المصدر السابق، ص٣٧٩.

(١٠٥) المصدر السابق، ص٣٧٩.

(١٠٦) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني، مصدر سابق، ص١٨.

المستمر بدلاً من السقوط في صيغ اختزالية (إن هي إلا كذا)، ولابد أيضاً من تنويع المقولات التحليلية التي يمكنها أن ترصد الشيء ونقيضه، وأن تصل إلى النماذج الكامنة في الخطاب أو وراء الظواهر"[١٠٧].

كما أن من أهم سمات المنهج الموضوعي التفسيري أنه لا يمكن الاكتفاء باستعادة واستخدام الفاعل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الجسماني أو الطبيعي فحسب، أي ما يتعلق بالفاعل الإنساني في محيطه وعلاقته المادية المباشرة مع واقعه المادي، أو علاقته مع الظروف والملابسات المادية سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها – المحيطة به – وإنما الأهم استعادة الفاعل الإنساني، من خلال (الإنسان الإنسان)، وهو الإنسان بكل تركيبته وأسراره وفاعليته وإبداعه، هذا الإنسان القابل للانتصار والانكسار من الداخل والخارج[١٠٨].

وهذه الخاصية الأخيرة للإنسان وللظاهرة الإنسانية – بحسب ما يرى المسيري – يجب التركيز عليها ووضعها في الاعتبار عند دراسة الظاهرة الصهيونية بالشكل الصحيح أو بالمعنى الموضوعي التفسيري الذي يطرحه، فمن خلال استعادة مفهوم الطبيعة البشرية وفق هذه الخاصية سنتمكن من رؤية "الصهاينة والعرب يتحركون لا كأشياء صماء ترصد من الخارج وإنما كبشر يحسون بما حولهم بطريقة محددة ويسقطون عليها معنى داخلياً هو الذي يحدد أهميتها بالنسبة لهم ويحدد مدى نجاحهم وفشلهم، وهم كبشر قابلين أيضاً للتماسك والنمو دون حتميات مسبقة تثبط الهمم دون مبرر أو تشحذها دون أساس – أي علينا أن نستعيد الإنسان العربي والإنسان الإسرائيلي كفاعلين قابلين للانتصار والانكسار – من الداخل ومن الخارج"[١٠٩].

ولتحقيق هذه الغاية فإن المسيري يرى أنه لابد من الابتعاد عن القوالب اللفظية والصور النمطية التي تحصر الظاهرة الإنسانية بشكل عام – والصهيونية – بشكل خاص ضمن تصورات معينة تقيد الفكر وتسوقه وتسيسه لتأكيد خطط أيديولوجية تم تحديدها مسبقاً كهدف للعملية الفكرية برمتها، وتمنعه من تكوين صورة متعددة تشمل وتعكس كل أبعاد الواقع، والتورط في عملية تعميم كاسح "لا يفيد كثيراً في الفهم المتعمق للظاهرة ولا يقدم خريطة تفصيلية تشمل كل أبعاد

---

(١٠٧) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٧٥.

(١٠٨) المصدر السابق، ص٣٧٩.

(١٠٩) المسيري، عبد الوهاب: الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية "دراسة في الإدراك والكرامة"، ط١، المنقحة، (د.م، المطبعة الفنية)، ١٩٨٩م، ص١٦-١٧.

الواقع"[١١٠]، برغم أنه لا يرفض التعميم بشكل قاطع، بل يجب بحسب رأيه "ألا نصدق ما يقوله بعض التجريبيين والوضعيين... من أن التعميم والتجريد أمران يجب الابتعاد عنهما بقدر المستطاع، ومن أنهما يجب أن يستندا إلى التجريب وحده وإلى ما يدرك بالحواس الخمس وحسب"[١١١].

والتجريد (Abstraction) والتعميم (Generalization)[١١٢] "أمران أساسيان وضروريان للفكر الإنساني"[١١٣]، فالمسيري – بحسب ما يرى – أننا حينما نستخدم ألفاظاً من قبيل (أخلاقيات العالم الغربي) أو (الصهيونية) أو غيرها من المفاهيم المجردة ذات الصبغة التعميمية، فإننا نكون قد استخدمنا نماذج عقلية افتراضية تساعدنا على تصنيف معطيات الواقع بشكل مجرد دون أساس تجريبي، والتعميم هو الذي يمكننا من الوصول إلى العلاقات التي تربطها ببعضها[١١٤].

كما أن هناك ميزة أخرى يراها المسيري لهما وهي أننا لا يمكن بدون المقدرة عليهما "أن نحقق أي تحرر من الواقع المباشر، وواقعنا العربي – أي حاضرنا – هو واقع ساهم الغرب في صياغته من خلال تجاربهم ومن خلال إدراكهم، فإنهم سيلقون علينا بمقولاتهم جاهزة إما أن نقبلها فنخضع لرؤيتهم فنسقط في (إمبريالية المقولات)، أو نرفضها فنقف في مهب ريح التفاصيل المتناثرة"[١١٥].

وبرغم ذلك فهو لا يطلق العملية التعميمية ويخليها من كل الضوابط، لذا فهو يشترط ما أسماه بـ (ضبط المستوى التعميمي)، فما يجب أن يحدد موقفنا ليس مدى دقة التعميم أو تطابقه مع الواقع بشكل مجرد، وإنما مقدرته التفسيرية وملاءمته للمستوى التحليلي الذي اختاره الباحث

---

(١١٠) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٨٠.

(١١١) المصدر السابق، ص٣٨٠.

(١١٢) لكي تتحقق عملية التفكير ليس من الضروري فحسب تمييز الخصائص المستقلة للأشياء، وإنما أيضاً التفكير فيها بطريقة متجردة عن الأشياء ذاتها، والتجريد يرتبط دائماً بالتعميم، فحينما نتوصل إلى تحديد الخصائص المتجردة للأشياء، فإن هذا يعني أننا قد بدأنا نفكر فيها في شكلها المعمم. (الجرجاوي، زياد بن علي: التفكير الإنساني وقضاياه التربوية).
www.qou.edu/arabic/reasearchprogram/reasearcherspages/ziyad-A-Jeriawi/r12-drziyadAljerjawi.pdf
يوم ٢٧ يناير ٢٠١٦، الساعة ٢٣,٠٣.

(١١٣) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٨٠.

(١١٤) المصدر السابق، ص٣٨٠.

(١١٥) المصدر السابق، ص٣٨٠.

لنفسه، ومدى ملاءمته للواقع الذي يجري تفسيره بحيث يمكن التوصل إلى مستوى تعميمي معقول نتمكن من خلاله من قراءة الواقع المركب، ولا ضير في أن يكون التعميم مؤقتاً، طالما أنه يفسر جوانب من الواقع، وهو ما يسمى بالتعريف الإجرائي، وهو تعريف قادر على تفسير جوانب مهمة من الظاهرة موضع الدراسة، ولكنه – في نفس الوقت – لا يدعي أنه تعريف جامع مانع يشمل كل الظواهر المماثلة وينطبق عليها[١١٦].

فالواقع الإنساني أو التاريخي أو الاقتصادي أو غيره، مكون من عناصر وأنساق مختلفة وليست مترابطة بشكل عضوي أو حتمي، لذا تتعدد الظواهر وتختلف، كما قد نجد داخل الظاهرة الواحدة عناصر متناقضة، كما أن فاعلية هذه العناصر قد تختلف من واقع لآخر ومن سياق لآخر، فبينما نجد أن العناصر الاقتصادية هي الفاعلة في مجتمع ما، نجد أن العناصر العقائدية هي الأكثر فاعلية في وقت آخر، إذ لا توجد أولوية سببية ثابتة لعنصر على وجه التحديد وبشكل مسبق، وبالتالي فالعلاقة بين العناصر المختلفة ليست علاقة سببية، وإنما هي علاقة احتمالية سببية فضفاضة[١١٧]، ويعبر المسيري عن هذه العلاقة بالصيغة الرمزية التالية: "أ تؤدي في معظم الأحيان إلى ب، وقد تؤدي إلى ج تحت ظروف أخرى"[١١٨].

ونتيجة لذلك فإن المسيري يرى أنه لابد للباحث أن يعدد وينوع من أدواته التفسيرية حتى يتمكن من مواجهة الواقع المركب، من خلال توليد وصياغة متتاليات تفسيرية احتمالية يقوم بتجريدها من خلال تفاعله مع هذا الواقع القائم والإمكانات الكامنة فيه، والظروف المحيطة به[١١٩]، وهو يعبر عن طبيعة هذه المتتاليات بالصيغة الرمزية التالية: "إذا كان (أ) إذاً (ب)، ولكن إذا كان (ج) إذاً (د)" [١٢٠].

لذلك فإن الهدف من المعرفة – بحسب رأيه – في الإطار التفسيري "هو زيادة المقدرة التفسيرية للأطروحات التحليلية، وبالتالي زيادة المقدرة التنبؤية مع إدراك استحالة الوصول إلى

---

(١١٦) المصدر السابق، ص٣٨١.

(١١٧) المصدر السابق، ص٣٨٤.

(١١٨) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مصدر سابق، ص٣٨٤.

(١١٩) المصدر السابق، ص٣٨٤.

(١٢٠) المصدر السابق، ص٣٨٤.

معرفة كاملة، وبالتالي الاستحالة الكاملة للتنبؤ والتحكم"[١٢١]، وهو عكس الهدف الذي تنشده المعرفة الموضوعية المادية المتلقية وهو "الوصف والتنبؤ ثم التحكم الكامل"[١٢٢].

ويرى المسيري أن استخدام المنهج الموضوعي الاجتهادي التفسيري يؤدي إلى نتائج إيجابية كثيرة منها على سبيل المثال أنه من خلال هذا المنهج يمكن "استرجاع الفاعل الإنساني بكل تركيبته، والعقل الإنساني بكل فعاليته، مما يعني رفض التلقي السلبي للواقع الخارجي وتفعيل الإبداع وزيادته، ونقل العملية البحثية من مادة البحث إلى عقل الباحث"[١٢٣].

كما أنه يؤدي إلى نتيجة مهمة جداً نوه وشدد عليها المسيري كثيراً هي عدم الخضوع لإمبريالية المقولات، وعدم التسليم برؤى الآخرين، والخروج من التبعية الإدراكية، وإدراك ورصد الظواهر في كل تناقضاتها وتركيبتها، وإدراك التحولات المختلفة التي تطرأ على الواقع وعدم التمسك بما هو شائع من رؤى، والبعد عن السقوط في الاختزالية والواحدية السببية والتقوقع داخلها[١٢٤].

وأخيراً فإن المسيري يرى أن هذا المنهج هو الوسيلة التي ستمكننا من الخروج من براثن الهزيمة، فدراسة ما هو كامن وإدراك ما هو ممكن، عوضاً عن إدراك ما هو قائم فحسب، سيمكننا – بلا ريب – من تجاوز واقع الهزيمة القائم والراسخ[١٢٥].

---

(١٢١) المصدر السابق، ص٣٨٥.

(١٢٢) المصدر السابق، ص٣٨٥.

(١٢٣) المصدر السابق، ص٣٨٥.

(١٢٤) المصدر السابق، ص٣٨٦.

(١٢٥) المصدر السابق، ص٣٨٦.

المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية:

أ) الكتب:

(١) الكتاب المقدس.

(٢) المسيري، عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ط٢، (القاهرة، مكتبة الشروق الدولية،) ٢٠٠٨م.

(٣) المسيري، عبد الوهاب: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر "سيرة غير ذاتية، غير موضوعية"، ط١، (القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة)، ٢٠٠٠م.

(٤) المسيري، عبد الوهاب: اليهود في عقل هؤلاء، ط١، (القاهرة، دار المعارف)، د.ت.

(٥) المسيري، عبد الوهاب: حوارات "الثقافة والمنهج"، تحرير: سوزان حرفي، ط٣، (دمشق، دار الفكر)، ٢٠١٢م.

(٦) المسيري، عبد الوهاب: أسرار العقل الصهيوني، ط١، (القاهرة، دار الحسام)، ١٩٩٦م.

(٧) المسيري، عبد الوهاب: الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح، د.ط، (بيروت، الدار الحمراء)، ٢٠٠٤م.

(٨) المسيري، عبد الوهاب: دفاع عن الإنسان "دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة"، ط١، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٣م.

(٩) المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، د.ط، (القاهرة، دار الهلال)، د.ت.

(١٠) المسيري، عبد الوهاب: في الخطاب والمصطلح الصهيوني "دراسة نظرية وتطبيقية"، ط١، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٣م.

(١١) المسيري، عبد الوهاب: الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية "دراسة في الإدراك والكرامة"، ط١، المنقحة (د.م، المطبعة الفنية)، ١٩٨٩م.

(١٢) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية وخيوط العنكبوت، ط١، (دمشق، دار الفكر)، ٢٠٠٦م.

(١٣) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الموجزة)، ط٥، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٩م، مج١.

(١٤) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (نموذج تفسيري جديد) (مصر، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم)، ٢٠٠١م.

(١٥) السماوي، شادي: الثورة الماوية في الصين "حقائق ومكاسب ودروس"، د.ط. (د. م، د.ن)، د.ت.

(١٦) حنفي، مصطفى: قضايا المنهج في الدراسات اليهودية (في عالم عبد الوهاب المسيري، حوار نقدي حضاري)، ط١، (القاهرة، دار الشروق)، ٢٠٠٤م.

(١٧) النجار، وئام محمود سليمان: التوظيف السياسي للإرهاب في السياسة الخارجية الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١-٢٠٠٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، ٢٠١٢م، غزة.

ب) الدوريات والمجلات:

(١) المسيري، عبد الوهاب: الصهيونية في مائة عام، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد ٢٧.

(٢) الشقوري، جواد: في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي الإسلامي، مجلة أوراق فلسفية، العدد ٢٠، سنة ٢٠٠٩م، القاهرة.

(٣) عبد المحسن، ماهر: النماذج والآفاق "دراسة في الخريطة الإدراكية عند المسيري وجادامير، مجلة أوراق فلسفية، العدد ١٩، سنة ٢٠٠٨م، القاهرة.

(٤) الغالي، ناصر، وآخر: التعبيرات الاصطلاحية في لغة الخطاب السياسي العربي ومواجهة الأحداث الدولية "قراءة سوسيوثقافية"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد ٢، سنة ٢٠١٢م.

ثانياً: باللغة الإنجليزية:

(1) Ali, Haggag:: Mapping the Secular Mind. Modernity's Quest for a Godless Utopia: (London, Washington, International Institute of Islamic Thought) 2013.

(2) Elmessiri M. Abdelwahab: The Gate of Ijtihad: An Introduction to the Study of Epistemological Bias (Epistemological Bias in the

Physical and Social Sciences) Edited By: Abdelwahab Elmessiri, International Institute of Islamic Thought, 2013.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

(١) المسيري، عبد الوهاب: الموضوعية والذاتية، موقع ثقافة عامة، ٢٠٠٢.
www.khaym.com/amoudaress/takafah/maoudoia.htm
٢١ يناير ٢٠١٦، الساعة ٣١,٠٣

(٢) المسيري، عبد الوهاب: الخريطة الإدراكية، مقال على موقع الجزيرة نت.
www.algazeera.net/krowledgegata/opining/2004/10/3
١٩ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٤,٢٢

(٣) المسيري، عبد الوهاب: فلسطين المحتلة والعقل الأمريكي، مقال على موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري نقلاً عن الجزيرة نت.
www.elmessiri.com/artiches-view.thp?id=48
١٩ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٤,٢٢

(4) https://en.wikipedia.org/wiki/marshall-hodgson
٢ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٦,٢٢

(5) www.newadvent.org/cathen/13034a.htm
٢ يناير ٢٠١٦، الساعة ١٨,٥٣

(٦) الهلال، أحمد: أزمة المصطلح في العقل العربي، مقال على موقع اليوم، ٣٠ يونيو ٢٠٠٤.
www.alyaum.com/artical/3148399
٢١ يناير ٢٠١٤، الساعة ٣,٢٣

(٧) الفضالة، ناصر: الإعلام وطمس الحقائق على الطريقة الصهيونية، ٢٠٠٤/٩/٢٦ مقال على موقع إسلام ويب

Articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=7359

٢٠ يناير ٢٠١٦، الساعة ٢٠,١٦

(٨) رجل آسيا المريض https://ar.wikipedia.org/wiki

٢٣ يناير ٢٠١٦، الساعة ٢٠,٠٩

(٩) الجرجاوي، زياد بن علي: التفكير الإنساني وقضاياه التربوية

www.qou.edu/arabic/reasearchprogram/reasearcherspages/ziyad-A-Jeriawi/r12-drziyadAljerjawi.pdf

٢٧ يناير ٢٠١٦، الساعة ٢٣,٠٣

(١٠) المكي، هشام: من العقل السلبي إلى العقل المبدع "قراءة في مساهمات عبد الوهاب المسيري المنهجية في البحث الاجتماعي"، مقال على موقع مركز نماء للبحوث والدراسات، ٢٠١٢.

Nama-center.com/Activitie Datials. Aspx?id=174

٤ يونيو ٢٠١٣، الساعة ٢٢,٣٦

(١١) درويش، حسام الدين: الفكر أو الموقف السياسي بين الحيادية الموضوعية وبين العقلانتية والمعقولية، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ٢٨ أكتوبر ٢٠١٣.

www.dohainstitute.org/release/f4201954-f7ee-47-86-9c3e-d909e752afc5

١٨ يناير ٢٠١٥، الساعة ١٣,٤٣